نوابغ الفكر العربي

٤٠

حسن العطار

بقلم

محمد عبد الغني حسن

« إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها »

حسن العطار

الطبعة الثانية

دار المعارف

حسن العطار

الفصل الأول

عصر حسن العطار

١ ــ الحياة السياسية

ولد الشيخ حسن العطار فى أول الثلث الأخير من القرن الثامن عشر سنة ١٧٦٦ م ، أى قبل الحملة الفرنسية على مصر باثنين وثلاثين عاماً . فهو يعطينا بمولده هذا صورة لمصر السياسية فى القرن الذى كان نهاية لحكم الولاة العثمانيين فى مصر .

والحق أن مصر فى القرن الثامن عشر كانت تختم القرون الثلاثة من الحكم العثمانى الذى ساقه القدر إليها على يد السلطان سليم العثمانى الذى فتح مصر سنة ٩٢٢ هـ ــ سنة ١٥١٧ م . وهى قرون شهدت البلاد فيها من الظلام والجهل والضعف والتأخر فى كل الميادين ما لا يمكن أن يصار إلى أسوأ منه . وكانت بداية القرون الثلاثة كنهايتها سوء حال ، وضعف مآل . وما ظنكم بفاتح تركى غاشم ، دهم البلاد بخيله ورجله . ثم رأى ــ بعد أن خرج منها مخلفاً نائبه عليها ــ أن يسلبها خير ما فيها . فقد روى ابن إياس مؤرخ الحملة العثمانية على مصر أن ابن عثمان ــ يعنى السلطان سليما ــ خرج من مصر وصحبته ألف جمل محملة ما بين ذهب وفضة ، هذا عدا ما غنمه من التحف والسلاح والصينى والنحاس المكفت والخيول والبغال والجمال وغيرها . ولم يكتف بذلك بل نقل حتى الرخام الفاخر من مساجدها ودورها . وما أكثر تهكم مؤرخنا ابن إياس وهو يقول عن هذه المنهوبات إنها مما لا فرح به آباء السلطان سليم ولا أجداده من قبله أبداً ..!
ولم تشبع هذه النفائس المصرية نهم الفاتح الناهب . فنقل معه من مصر إلى إستنبول طوائف كثيرة من أرباب الصناعات وأهل الفنون من البنائين والنجارين والحدادين والمرخمين والمبلطين والخراطين والمهندسين والحجارين والفعلة . . .

وكاد مؤرخنا البحاثة المصرى وتلميذ المؤرخ السيوطى يذكر لنا فى حوادث سنة ٩٢٣ هـ من كتابه « بدائع الزهور : فى وقائع الدهور » أسماء هؤلاء الذين اقتلعهم السلطان سليم من وطنهم ليحيي بهم الفن والصناعة فى وطنه . . .

وإذا كان الوالى العثمانى – الذى كان يعينه سلطان تركيا على مصر — هو أحد السلطات الثلاث التى كانت تشترك فى حكم البلاد وإدارتها ، وهى : الوالى نفسه . ورؤساء الجند . والأمراء المماليك الذين كانوا يحفظون التوازن بين الوالى ورؤساء الجند ، فإن هذا النظام الذى أدخله إلى مصر السلطان سليم أو السلطان سليمان القانونى قد تطور فى النصف الثانى من القرن السابع عشر بحكم طبيعة التنافس بين هذه السلطات الثلاث . وانتهى الأمر فى سنة ١٦٧٢ إلى أن استأثر المماليك البكوات وحدهم بحكم مصر ، ولم يكن للوالى التركى بجانبهم نفوذ ولا سلطان .

ويروى لنا الرحالة ڤانسليب Vansleb الذى زار مصر فى العقد الثامن من القرن السابع عشر أن عدد حكام مصر من البكوات المماليك فى عصره كان ستة عشر مملوكاً ، وإن كان هذا العدد قد نقص فى القرن الثامن عشر إلى بضعة من البكوات المماليك كما يذكر الرحالة سونينى .

وأيا ما كان عدد البكوات الذين استأثروا بحكم مصر وإدارة شئونها منذ القرن السابع عشر ؛ فإن تصحيحاً يجب أن يذكر هنا بصدد هؤلاء المماليك الذين شاركوا فى حكم مصر أو حكموها مستقلين فى العهد العثمانى . فليس كل هؤلاء البكوات المماليك أحفاداً لرجال دولتى المماليك البحرية والبرجية الذين انتهى إليهم حكم مصر بعد الدولة الأيوبية ؛ وليس هؤلاء البكوات المماليك امتداداً فى النسل والذرية لمماليك الدولتين البحرية والبرجية . نعم إن كثرة منهم كانت فى أول الحكم العثمانى امتداداً وأسلافاً لأولئك المماليك ، ولكنهم بعد ذلك وبمضى الزمن كانوا يجتلبون بوساطة البكوات الأمراء من بلاد الشركس والكرج والقوقاز عن طريق الشراء ، ليزداد البكوات عصبية بهم . وكان هؤلاء المجتلبون يصبحون مع الزمن أمراء ينقلبون على سادتهم الذين اشتروهم وينتزعون السلطان من أيديهم ويحلون محلهم . . .

وحين نتصفح تاريخ الجبرتى المسمى « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » نرى أخبارا كثيرة من هذه الانقلابات والوثبات التى كان يشنها هؤلاء الأمراء المماليك بعضهم على بعض حتى يستقيم لهم الحكم وحدهم بلا منازعين . . .

ومنذ انفرد البكوات المماليك بحكم مصر فى العصر التركى دون الوالى العثمانى ورؤساء الجند فإن نفوذ ذلك الوالى لم يعد له قيام . وكان هم الوالى وهو عديم السلطان فى القلعة أن يدس بين أمراء المماليك ويوقع الفتنة بينهم حتى يصفو له العيش ولو بعض حين . وممن يحضرنا فى هذا المقام الوالى العثمانى سليمان باشا الشامى الشهير بابن العظم الذى جاء لولاية مصر قبل مولد حسن العطار ببضعة وعشرين عاماً . ويذكر مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى أنه لما استقر فى ولاية مصر أراد إيقاع فتنة بين الأمراء ، واستعان فى ذلك بالأمير المملوك عمر بن على بك قطامش ، واتفق معه على التخلص بالقتل من أربعة من البكوات المماليك ، وهم عثمان بك ذو الفقار ، وإبراهيم بك قطامش ، وعبد الله بك القازدغلى ، وعلى بك كتخدا الجافى . وهم إذ ذاك أصحاب الرياسة والنفوذ بمصر ، وكان ثمن هذه الخيانة من المملوك عمر بك قطامش أن يعينه الوالى العثمانى أميراً للحج وأن (يعطيه من بلادهم فائظ عشرين كيساً) . . .

وبالطبع لم تطل ولاية هذا الوالى الدساس الذى قذف به السلطان العثمانى من الشام إلى مصر . فقد عرف البكوات فتنه ، واتقوا شره ، واضطروه إلى مغادرة البلاد . على أن خلفه المسمى على باشا حكيم أوغلى قد احتاط لنفسه من أن يتهم بالفتنة منذ اللحظة التى حط فيها رحاله بمصر ، فمنذ حضر أول ديوان بميدان قراميدان . وكان يشهده الجم الغفير من الناس . وقرئ مرسوم الولاية بحضرة الجميع وقف الوالى الجديد يعلن فى صوت قوى مسموع : أنا لم آت إلى مصر لأجل إثارة فتن بين الأمراء . وإغراء ناس على ناس . وإنما أتيت لأعطى كل ذى حق حقه . وحضرة السلطان أعطانى المقاطعات . وأنا أنعمت بها عليكم ! فلا تتعبونى فى خلاص المال والغلال ! !

والحق أن الدولة العثمانية فى ذلك الحين كانت مشغولة بضعفها وتقهقر

الأمور فيها عن أن توجه عنايتها إلى مصر أو إلى أى بلد آخر من البلدان التابعة لها . فقد كان عندها من المشاغل والمسائل ما يصرفها عن أن تتجه بإصلاح إلى هذه البلاد التى كانت بحاجة إلى إصلاح . وكانت الحروب والمنازعات التى قامت بينها وبين النمسا والروسيا فى ذلك العهد أكبر باعث للمماليك فى مصر على أن يحاولوا التخلص من سيادة تركيا . والاستقلال بمصر . وقد ظهر ذلك جلياً فى الدور الذى قام به المملوك على بك الكبير ، الذى كان كبيراً للبكوات المماليك فى مصر . والذى وصل بقوته ودهائه وقوة أشياعه إلى أن صار شيخاً للبلد سنة ١٧٦٣ م . فما كاد يرى الدولة العثمانية تدخل فى حرب مع الروسيا سنة ١٧٦٨ حتى جاهر بخلع يده من طاعة الدولة ، وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩ وأعلن استقلال مصر ، وعزل الوالى التركى المعين من قبل السلطان ، ومنع دخول أى واحد من الولاة العثمانيين إلى مصر : وضرب النقود المصرية باسمه ، وبذلك تمت له كل مظاهر السيادة والاستقلال . ودانت له مصر كلها بوجهيها البحرى والقبلى . وقد كان هذا الحادث بعد ميلاد الشيخ حسن العطار بعامين اثنين.

ولا شك أن الشيخ حسن العطار قد بدأ فى مطلع شبابه يعى أمثال هذا الحادث ولا شك أنه — وهو فى العشرين من عمره — قد شاهد الحملة العسكرية التركية التى جردتها الدولة العثمانية على مصر سنة ١٧٨٦ لكى تسترد سلطتها فيها بعد ما كان من استقلال على بك الكبير بأمر الحكم فى مصر . ولا شك أنه شهد فرار إبراهيم بك ومراد بك إلى الصعيد بعد أن نزلت الحملة التركية بقيادة حسن باشا الجزائرلى . ولا شك أنه شهد عودة إبراهيم ومراد إلى القاهرة واقتسام السلطة بينهما . وتلاشى سلطة الوالى التركى . إلى أن استقر إبراهيم بك شيخاً للبلد ، وما زال فى المشيخة حتى جاء نابليون بونابرت على رأس الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ م .

ومن سوء الحظ أن الشيخ حسن العطار لم يدرك فى طفولته قيمة فترة الاستقلال القصيرة التى تمتعت بها مصر فى عهد على بك الكبير . وأنه قد شاهد بعينيه قصة الصراع بين البكوات المماليك . ولعله قد شاهد كذلك مبلغ ما وصل إليه

ضعف الوالى التركى وفناء شخصيته واستقلاله ، حتى لقد كان يعزله المماليك حين يشاءون بأن يرسلوا إليه رسولاً من عندهم يسمى الأودة باشى ، يلبس رداء أسود ، ويحمل قرار العزل . ولعله قد سمع تلك القصة التى رواها الرحالة سافارى ، ورواها كذلك الرحالة ڤولنى فى كتابه « ثلاثة أعوام فى مصر وبر الشام » حيث يذهب الأودة باشى إلى قاعة الاستقبال التى يجلس فيها الوالى ، فيدخل عليه ، وينحنى احتراماً له ، ثم يلمس طرف السجادة ويطويها ، ويقول موجهاً الخطاب إلى الوالى : انزل يا باشا ! ثم يخرج من القاعة . وهنا يعلم الباشا الوالى أن المماليك البكوات حكموا بعزله . وأنه لا أمل له فى البقاء بعد ذلك ، فيحزم أمتعته ، ويتوجه إلى بولاق حيث يركب منها عائداً إلى استنبول ! !

ولم يحمل ضعف الولاة العثمانيين أى معنى غير قوة الحكم بيد المماليك ، وهى قوة لم يكن للشعب نصيب منها ولا مشاركة فيها ، فقد كان الأمر بيد جماعة من البكوات يتنازعون على السلطان ، ولو بذلوا فى سبيله أغلى الأثمان . . .

ب ــ الحالة الاجتماعية

ولد الشيخ حسن العطار فى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر كما سلف القول . ولقد استطاع مؤرخ مصرى متيقظ هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتى أن يصور لنا فى كتابه كثيراً من الصور الاجتماعية فى مصر فى ذلك القرن الذى سبق مجىء الحملة الفرنسية ، وهو قرن كان امتداداً ونهاية لقرنين قبله من الحكم العثمانى . وتستطيع فى كل صفحة من تاريخ الجبرتى أن تستخرج صورة للمجتمع المصرى فى ذلك الزمن وخاصة فى تلك العقود من السنين التى سبقت مولد الشيخ حسن العطار . وإذا كان العطار من أسرة اشتغل عائلها بالتجارة والعطارة فى أسواق القاهرة ، ولم تكن تعرف الأرض الزراعية ولا الفلاحة ، فإن صاحبنا لا شك قد أدرك ــ بوعيه ومشاهدته ــ نظام ملكية الأرض التى كان قدر قليل منها فى يد الفلاحين الذين كانوا مثقلين بالضرائب والأتاوات المفروضة يدفعونها

إلى « الملتزم » الذى كان يأخذ القرى التزاماً ، ويتصرف فيها تصرف المالك فى ملكه ، على أن يتكفل بدفع ضرائبها إلى الحكومة ويتولى هو بنفسه جباية المال من الفلاحين . وكان نظام الالتزام هذا يعرض بطريق المزايدة لمن يدفع له ثمناً أكبر من أصحاب النفوذ والقوة القادرين على الجباية . . . وبعد أن كان الالتزام لمدة معينة صار يعطى للملتزمين مدى الحياة على أن ينتقل إلى ورثتهم متى دفعوا الإتاوة للحكومة .

ولاشك أن حسن العطار قد شاهد وسمع عن مساوئ هذا النظام الذى كان يعطى الملتزم حق نزع الأرض من يد الفلاح – بحجة تقصيره فى دفع الضرائب – وإعطائها إلى فلاح آخر . مما جعل ملكية الفلاح التى يزرعها تحت رحمة هؤلاء هؤلاء الملتزمين . وكانت الضرائب بأنواعها ؛ سواء كانت مخصصة للحكومة أم لكاشف الإقليم أم حاكمه أم للملتزم نفسه ، تثقل كاهل الفلاح الذى وصفه الرحالة ڤولنى ووصف حالته فى عهد طفولة حسن العطار بقوله : (والفلاحون آلات مأجورة : لا يترك لهم للمعاش إلا ما يقيهم الموت ، وما يحصدونه من أرز وحنطة يذهب إلى موائد سادتهم ، على حين يحتفظون لأنفسهم بالذرة ويصنعون منها خبزاً بلا خمير ، لا طعم له إذا كان بارداً ، يخبزونه فى ماة وقودها من روث الأبقار والجواميس . فهذا الخبز مضافاً إلى الماء والبصل الأخضر هو طعامهم طول العام . ويحسبون سعداء إذا تخلل طعامهم هذا شىء من العسل والجبن واللبن الرائب . أما اللحم والدهن فلا يعرفونهما إلا فى الأعياد والمواسم الكبرى وفى بيوت أهل السعة منهم . . .)

ولعل الله أراد بأسرة حسن العطار خيراً حين قسم لهم الاشتغال بالتجارة . فقد كان التجار أقل تعرضاً للمظالم من الفلاحين وأصحاب الأرض الزراعية . كما كانت معيشتهم فى القاهرة والعواصم الكبرى تضمن لهم من وسائل الراحة والعيش الهنىء – نسبياً – ما لا تضمنه الفلاحة . على أن التجار لم يسلموا فى كثير من الأحيان من مصادرة أموالهم لأسباب يتخذها الحكام . وهؤلاء هم التجار الذين كان يبدو عليهم اليسار . . . أما تاجر كالشيخ محمد كتن ، والد

حسن العطار ، فقد كان يعيش فى ستر الله فى دكانه الصغير ، وبهذا سلم من ظلم المصادرين ، وعيون المحصلين . . .

على أنه بجانب هؤلاء المستورين من التجار كان يوجد قلة من التجار الأثرياء الذين اجتمع لهم من الغنى الوافر والجاه العريض ما لم يفت مؤرخنا الجبرتى أن يصفه . فقد وصف لنا بيت الحاج أحمد الشرايبى التاجر ، (وبيتهم المشهور بالأزبكية بيت المجد والفخر والعز . ومماليكهم وأولاد مماليكهم من أعيان مصر جربجية وأمراء ، ومنهم يوسف بك الشرايبى . وكانوا فى غاية من الغنى والرفاهية والنظام ومكارم الأخلاق ، والإحسان للخاص والعام . ويتردد إلى منزلهم العلماء والفضلاء) .

أما أرباب الصناعة فى المجتمع المصرى فكانوا – على مهارتهم فى بعض الصناعات – على حال من الضنك بما يفرضه الحكام عليهم دائماً من الإتاوات والغرامات التى كان يجمعها « شيخ الطائفة » ويوردها إلى الحكومة . ولقد أساء السلطان سليم بما فعله عند خروجه من مصر من نقل أمهر الصناع وأرباب الفنون إلى الآستانة ، فقد كسدت بذلك سوق الصناعة فى البلاد ؛ وبقى على الزمن فى خلال الثلاثة القرون من الحكم العثمانى بعض الصناعات الدقيقة كصناعة البسط والأكلمة ، والتطريز التى كان يعجب بها الأجانب ويتهافتون على شرائها وخاصة تطريز الحرير والجوخ والموسلين ، وتطريز الجلود بأسلاك الذهب والفضة ، وصناعة الكردون والشراريب من القطن والحرير وأسلاك الذهب والفضة التى اشتهر بها العقادون ؛ وصناعة الخراطة التى قام بها الخراطون فى عمل النوافذ والأبواب والشبابيك والمشربيات والمنابر والحواجز ، وصياغة المعادن وخرط الكهرمان والعاج .

أما الصناعات الآلية الدقيقة فلم يكن من أهل البلاد من يعرفها ، وقد لفتت هذه الظاهرة أنظار كل الرحالين الذين وفدوا إلى مصر فى ذلك العصر ، فكتب ڤولنى يقول (إن الفنون الآلية ما يزال أبسطها فى دور نشأته ، وأشغال النجارة والحدادة والأسلحة بعيدة عن الإحكام والإتقان ، وأنك لتجهد نفسك لتحصل

على من يصلح لك ساعتك فى القاهرة ، وإذا عثرت عليه فهو أجنبى . . .)

على أن ذلك لم يمنع من قيام صناعات أخرى تتصل بمواد التغذية ، والملبس ، وحركة العمارة والتشييد . كطحن الحبوب ، وضرب الأرز وتبييضه ، وطحن البن ، وعصر الزيوت ، واستقطار ماء الورد وما إليه ، واشتيار العسل ، وصنع الفطائر ، وغزل القطن والكتان والصوف ونسجها ، ونسج الحرير ، ونحت الأحجار . وصنع البلاط ، وتنجيد الأثاث ، وعمل المسابح ، وسك النقود .

وكان بجانب هذه المهن مهن أخرى أقل منها قدراً وأكثر اتضاعا ، كالمكارين الذين وصف المويلحى بقاياهم فى « حديث عيسى بن هشام » ، وكالحمالين ، والنوتية فى النيل ، والسقائين الذين كانوا يحملون قرب الماء على ظهورهم ، وقد وصفهم المستشرق إدوار وليم لين وصفاً دقيقاً شائقاً خلال رحلته إلى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر .

ولعل هذا التخلف فى ميدان العلوم العملية التطبيقية وفى مجال الصناعات والفنون هو الذى دعا الشيخ حسن العطار — حين صار له رأى مسموع — إلى المناداة بضرورة الأخذ بالعلوم الطبيعية والأصول الهندسية ، بجانب الرسوخ فى العلوم الشرعية والأصول الفقهية ، فإن الدين لا يتعارض مع التفكر فى ملكوت السموات والأرض ومحاولة تسخير الطبيعة وقوى الكون للقوى العاقلة فى الإنسان .

ومن المخالفة للواقع أن نقول إن المجتمع المصرى فى ذلك العهد كان مجتمعاً سليماً صحيحاً معافى من الأمراض . ولا شك أن الجهل والتسليم الناقص بالقضاء والقدر كانا من أهم العوامل فى انتشار الأوبئة والعلل بصورة مزعجة . حتى كان مئات الألوف من النفوس تتعرض للموت فى حالات الوباء .

ومن العجيب أن مصر منذ الاحتلال العثمانى لها كانت مسرحاً ومباءة لمرض الطاعون الذى كان يفتك بالبلاد فتكاً ذريعاً . فبعد ست سنوات ومائة من ذلك الاحتلال أصيبت البلاد فى زمن الوالى جعفر باشا بطاعون شديد لبث أربعة أشهر ومات فيه ستمائة ألف نسمة . وبعد هذا الطاعون بسبع سنوات لا تزيد اجتاح الوباء ثلاثمائة ألف نسمة . ويروى المؤرخ ابن أبى السرور البكرى أنه

فى سنة ١٠٥٠ هـ — أى بعد الاحتلال التركى بمائة وثلاثين عاماً — وفى عهد الوالى مقصود باشا . حصل طاعون لم يسمع بمثله ؛ وكان السبب فى خراب ٢٣٠ بلدة من الوجه البحرى . . . ولا تنسى البلاد ذلك الطاعون الذى حدث فى شياخة المملوك المصرى ذى الفقار بك سنة ١١٤٢هـ — ١٧٢٩ م قبل مولد العطار ببضعة وثلاثين عاماً . على أنه فى سنة ١٢٠٥هـ — سنة ١٧٩١ م ، وسن العطار تبلغ خمسة وعشرين عاماً — حدث بمصر الطاعون الذى مات فيه السيد محمد مرتضى الزبيدى صاحب « تاج العروس » فى شرح القاموس وأحد شيوخ حسن العطار وعبد الرحمن الجبرتى المؤرخ .

ولقد حدث فى عصر حسن العطار بعد ذلك وباءان عظيمان أولهما فى عهد الحملة الفرنسية سنة ١٨٠٠ م ؛ وثانيهما فى عهد محمد على سنة ١٨٢٣ ، وقد وصف الرجل الوباءين بما سنعرض له فى موضعه من هذا الكتاب بشىء من التفصيل الذى يقتضيه مشاركة صاحبنا فى وصف أحداث زمانه .

على أن ذلك المجتمع المريض الجاهل الفقير لم يسلم بالطبع من فعل الخرافات فيه وانقياده للأوهام والخزعبلات . وقد ولد حسن العطار — ذلك الشيخ الأزهرى المتنور — فى ظلمات تلك الخرافات ؛ فقبل مولده بسبع سنين لا تزيد حدثت حادثة العنزة التى رواها الجبرتى المؤرخ فى حوادث سنة ١١٧٣ هـ . وبطل هذه الحادثة هو الشيخ عبد اللطيف كبير خدام المشهد النفيسى . فقد جلب عنزا واخترع لها قصة ، وزعم أن السيدة نفيسة — دفينة المشهد — تكلمت وأوصت بالعنزة ! وأن الشيخ نفسه سمع كلامها من داخل القبر ! وزعم الشيخ الدجال أن هذه العنزة لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق ، ولا تشرب إلا ماء الورد والسكر المكرر ! فكان الناس يحملون إليه ذلك بالقناطير ! وحملوا إليه النذور ! وعمل النساء للعنز قلائد الذهب والأطواق والحلى ونحوها . . . وافتتنوا بها ! وبلغ الخبر مسامع عبد الرحمن كتخدا المشهور كبير البكوات المماليك فى مصر وصاحب العمائر الشهيرة بالقاهرة ؛ وكان رجلاً عاقلاً واعياً ، فاحتال على العنز حتى ذبحها وصاحبها الدجال لا يعلم ، وقدمها له مشوية وهو يقول له :

كل يا شيخ عبد اللطيف من هذا الرميس الثمين ! والشيخ يأكل ويقول إن لحمها طيب ، ومستو ، ونفيس ! وهو لايدرى أنها عنزه! والقوم يتغامزون ويتضاحكون . فلما سأل الشيخ — فى خاتمة الضيافة — عن عنزته قيل له إنها هى التى كانت فى الصحن بين يديه ! ووبخه الأمير كتخدا على دجله وشعوذته ، وأمر بأن يوضع جلد العنزة على عمامته ، ويُسارَ به فى شوارع القاهرة على هذه الحال ، وبين يديه الطبول والأشاير ! !

وكان حادث العنزة واحداً من عشرات الحوادث التى تدل على عقلية المجتمع المصرى فى ذلك العهد ، فقبله بخمسة وعشرين عاماً أشيع فى الناس بمصر أن القيامة ستقوم بعد يومين اثنين . . . وراج هذا الكلام حتى فى القرى والأرياف ، وودع الناس بعضهم بعضاً ، وكان يقول المرء لصاحبه : بقى من عمرنا يومان . . . وانقسم الناس فريقين : فريقاً لجأ إلى اللهو والحظ والخروج إلى الغيطان والمتنزهات ليتزود من الدنيا بآخر متعة ! ، وفريقاً لجأ إلى الابتهال والصلاة يستغفر الله من ذنبه ! ومن عجب أن الفريقين صدقا الإشاعة ووقع صدقها فى نفوسهم ، واستدلوا على صدقها بقول أصحاب الجفور والزايرجات من اليهود والأقباط . فلما فات اليومان ولم تقم القيامة كما كانوا يتوقعون انتقلوا إلى القول بأن السيد أحمد البدوى ، والدسوقى ، والشافعى تشفعوا فى ذلك ، وقبل الله شفاعتهم ! !

ولعل المجتمع المصرى كان يتسلى من الظلم المحدق به والضيق الواقع عليه بأمثال هذه الخرافات والخزعبلات . . . على أن شيوخ ذلك العصر وأدباءه وشعراءه كانوا يهربون من الضيق المحيط بهم إلى جو آخر غير جو الأوهام والخرافات . . . . فكانوا يتسلون على إساءات الزمان بالاجتماعات التى كانوا يقيمونها ويتبادلون فيها الأشعار والأسمار ، وبالدعوات إلى المتنزهات حيث يستمعون إلى حفيف الأشجار ، وغناء الأطيار . وسنلتقى فى فصل مقبل بالشاعر إسماعيل الخشاب ، والشيخين حسن العطار وعبد الرحمن الجبرتى المؤرخ ، حيث كانوا يتنادمون فى دار الجبرتى ، ويطرحون التكليف ، فى جو أدبى ظريف . . .

حـ — الحياة العقلية

كانت مصر فى القرن الثامن عشر لا تزال تابعة للدولة العثمانية ، وكان مظهر هذه التبعية هو وجود الوالى التركى فى مصر ، وإن كان بكوات المماليك هم الذين يتولون الحكم الحقيقى فى البلاد . ولم تكن مصر وحدها منفردة بهذه التبعية فقد شاركها فى ذلك الشام والعراق والحجاز واليمن وبعض بلاد الشمال الإفريقى. ولم تكن تركيا نفسها بأسعد حظاً من هذه البلاد التابعة ، من حيث الحركة الفكرية والحياة العقلية . فحينما أراد سعيد بن[1] محمد جلبى سفير الدولة العثمانية فى باريس إدخال المطبعة لأول مرة فى بلاده فى القرن الثامن عشر وجد من الحكومة من المعارضة مثل ما لقيه من الشعب . فقد كان رجال الدين يتحرجون أشد الحرج من ذلك الاختراع الجديد ، ثم سمحوا بطبع الكتب غير الدينية ، وأخيراً سمحوا بطبع الكتب الدينية بناء على فتوى أصدرها رجال الشرع استناداً إلى القضية المسلم بها ، وهى أن الأمور بمقاصدها . . .

والواقع أن القرن الثامن عشر الذى ولد فيه حسن العطار لم يكن إلا على غرار القرنين السابقين له — وهما السابع عشر والسادس عشر — من حيث التخلف العقلى ، والتأخر الفكرى الذى ظهر فى البلاد بصورة واضحة . فاقد ضاعت تلك البقية الباقية من الحركة الفكرية والعلمية والأدبية التى كانت سائدة فى عصر دولتى المماليك البحرية والشراكسة . وبلغ من سوء حال الأدب فى ذلك العصر أنه لم ينبغ فى البلاد شاعر واحد يستحق أن يشار إليه . واقتصرت الحركة العلمية على وجود طائفة من العلماء والشيوخ الذين اهتموا بتأليف الشروح والحواشى والتعاليق والتقارير ؛ بدلاً من الاهتمام بالابتكارات الأصلية فى

---

(١) ذكر الأستاذ عمر الدسوقى فى كتابه « فى الأدب الحديث » جـ ١ أن محمد جلبى سفير الدولة العثمانية هو الذى أراد هذا ، والواقع انه ابنه سعيد الذى صار صدراً أعظم بعد ذلك . وانظر تاريخ الطباعة فى الشرق العربى .

العلوم . وإذا كان عصر دولتي المماليك قد سمى عصر كتب الموسوعات والمجاميع العلمية : فإن العصر العثمانى بجملته قد سمى عصر الشروح والحواشى .

ومن عجائب ما حدث فى القرون الثلاثة للاحتلال العثمانى أن اللغة التركية لم تستطع أن تنافس اللغة العربية أو تطردها فى أوطانها ، ولكنها استطاعت أن تفسد ملكة اللسان العربى عند أصحابه . . . فقد رأينا ملكة التعبير هبطت عند كثير من الأدباء والمؤلفين ، كما رأينا الأصالة الفكرية قد استحالت إلى ضحالة ، ورأينا القرائح العربية قد جمدت ولم يعد لها ذلك الخصب الذى عهدناه فى عهود القوة العربية ، وهبط مستوى التأليف الخالق المبتكر إلى درك من الجدل العقيم ، والتعليق السقيم ، والحواشى المرذولة التى لا ترتفع إلى مستوى الأصلاء فى التفكير ، والتى لا تعدو أن تكون مجموعة من الاعتراضات المفردة التى لا تدل على استجماع فكر ، ولا تأصل رأى ، ولا استنباط علم . . . ومن هنا لم يظهر فى القرن الثانى عشر الهجرى الذى ظهر فيه حسن العطار إلا قلة نادرة من أمثال السيد مرتضى الزبيدى شارح القاموس المحيط ، والشيخ محمد الصبان الذى اشتهر بحاشيته على شرح الأشمونى ، ولم يكن له من الأصالة فى علم النحو مثل ما كان لابن هشام النحوى المصرى من رجال القرن الثامن الهجرى ، وصاحب شذور الذهب ، ومغنى اللبيب ، وقطر الندى ، والذى شهد له المؤرخ ابن خلدون بقوله : «ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام ، أنحى من سيبويه . . . » . حتى الشيخ عبد الغنى النابلسى الرحالة اللغوى المنطقى المؤرخ المتصوف المشهور ، والذى كان يلقب بأستاذ الأساتذة ، لم يكن له من الأصالة فى التأليف والفقه والفتوى ما يرفعه إلى مقام المؤلفين المبتكرين . . .

وإذا كان عرضنا للمصنفات التى ظهرت فى عصر ظهور الشيخ حسن العطار يدلنا على المتجه الفكرى الذى وصلت إليه الحركة الثقافية فى ذلك الزمان ، فإن عرضنا لطائفة من شعر ذلك العصر يدلنا على المستوى الذى هبط إليه التعبير والخيال فيه . ولعل الكلام هنا يقوى بالاستشهاد أكثر مما يقوى بإرسال الأحكام .

فى سنة ١١٨٢ هـ — سنة ١٧٦٨ م مات شيخ الإسلام أحمد الخالدى

الأزهرى . فرثاه الشاعر الشيخ مصطفى الصاوى ، وكان يلقب بنادرة العصر ، بقصيدة يقول فيها :

يادهر مالك بالمكاره تجترى ... ولفقد أرباب المكارم تحترى
تغتال منا ماجداً مع ماجد ... طابت طبائعه بطيب العنصر
تُردى الكريم ابن الكريم وما ترى ... حقًّا لعهد الماهر المتبصر
إن أصبح المولى عزيز عشيرة ... أمسيته فى ذل ذل أحقر
يغدو كريم النفس وهو مقدم ... فيروح فى هون به متقهقر
وإذا حلت بالصفو حالة حاله ... مررتها ببغيض عيش أكدر
لو كنت ترعى فى الأفاضل حقهم ... أبقيت مجمع شملهم فى الأعصر

ومن عجب أن الجبرتى المؤرخ الذى يلقب الشاعر مصطفى الصاوى هذا بلقب نادرة العصر ، يصف هذه القصيدة بأنها فريدة . . .

ولا يزيد الشيخ عبد الله الإدكاوى — الشاعر المصرى فى أوائل عهد حسن العطار — شيئاً على زميله الشاعر مصطفى الصاوى . ولكنهما كانا نموذج الشاعر الرفيع فى عصرهما ، حتى ليغلى الجبرتى المؤرخ فى تقديرهما وخلع النعوت عليهما . ومن الشعر الذى رواه له صاحب « عجائب الآثار » قوله فى الرد على المنجمين :

الله يعلم ما ما يكون ، وما به ... تسرى الرياح ، وماله يجرى الفَلَكْ
فدع المنجم فى ضلالته وما ... ينبيك عنه ففى مقالته أَفَكْ
واحذر تصدقه فتهلك جاهلا ... يا مدعى الإيمان فيمن قد هلكْ
علم الأله محجب إلا على ... من يرتضيه من رسول أو ملك
هذا اعتقادى والذى ألقى به ... ربى لأسلك ناجيا مع من سلك

ولم يكن أى قطر عربى فى ذلك العهد بأسعد حالاً من مصر فى الشعر وغيره من فنون الأدب والعلم . فقد ظهر فى ذلك الزمان السيد جعفر السقاف

باعلوى ، وكان يلقب بأديب جزيرة الحجاز ، ومع هذا لم يكن يمتح فى شعره إلا من البئر التى يمتح منها بقية الشعراء فى عصره . . .

ولقد ساعدت عجمة الدولة المتبوعة ، وجهلُ الحاكم ، واستهتارُ الوالى العثمانى وضعفه . وصراع البيكوات المماليك وانشغالهم بأمور أنفسهم عن إصلاح أمور الشعب . وتعطيلُ المدارس ، وتبديدُ خزائن الكتب — ساعد كل ذلك على تأخر الحالة العلمية والأدبية فى البلاد ، حتى صارت إلى حد كان لابد بعده من بزوغ نهضة جديدة تعوض ما فات ، وتجدد ما اندرس ، فكانت تلك النهضة التى ظهرت فى القرن التاسع عشر . والتى كان رائدها الشيخ رفاعة الطهطاوى تلميذ الشيخ حسن العطار .

ولا شك أن تعطيل المدارس التى كانت مزدهرة فى أيام الفاطميين والأيوبيين ودولتى المماليك كان عاملاً من عوامل التخلف فى البلاد ، وإلى هذه الحقيقة يشير على مبارك فى الجزء الأول من « الخطط التوفيقية » بقوله : (من ابتداء القرن التاسع إلى القرن الثانى عشر يعنى مدة ثلاثة قرون ، قد أهمل أمر المدارس ، وامتدت أيدى الأطماع إلى أوقافها ، وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها ، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فأخذوا فى مفارقتها . وصار ذلك يزيد فى كل سنة عما قبلها لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد ، حتى انقطع التدريس فيها بالكلية . وبيعت كتبها وانتهبت . ثم أخذت تتشعث وتتخرب من عدم الالتفات إلى عمارتها ومرمتها . فامتدت أيدى الناس والظلمة إلى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها . حتى آل بعض تلك المدارس الفخمة والمبانى الجليلة إلى زاوية صغيرة تراها مغلقة فى أغلب الأيام ؛ وبعضها زال بالكلية وصار زريبة أو حوشاً أو غير ذلك . ولله عاقبة الأمور . . .)

والواقع أنه لولا وجود الأزهر — على الرغم مما كان فيه من تخلف وجمود فى مواد الدراسة — لقضى على الحياة الفكرية بمصر قضاء مبرما . فقد كان الشيوخ الذين يتخرجون فيه مبعث ذلك البصيص من النور فى البلاد ، وكانت الكتب الأزهرية — على الرغم من عقم مناهجها وعدم جدواها — مثاراً لانشغالات ذهنية ،

وإن كانت العلوم العقلية والرياضية والطبيعية قد هجرت فى الأزهر تماماً ، حتى لقد تعجب الوزير أحمد باشا كور الوالى التركى على مصر سنة ١١٦١هـ – أى قبل مولد العطار بعشرين عاماً – من عدم وجود العلوم الرياضية فى الأزهر مع شدة رغبته فى طلبها ، فلما استقر مقامه بالقلعة وقابل صدور العلماء، ومنهم الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر تكلم معهم فى الرياضيات ، فأجابوه بأنهم لا يعرفون هذه العلوم ، فتعجب وسكت ، ثم انتهز فرصة اختلائه بالشيخ فقال له : المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وكنت فى غاية الشوق إلى المجىء إليها ، فلما جئتها وجدتها كما قيل : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . . . ولما علم أن بين أهل الأزهر قلة ممن يعرفون العلوم الرياضية – كالشيخ حسن الجبرتى والد مؤرخنا – فرح بالتردد عليه وقراءة كتب الرياضة معه .

وكان الشيخ حسن العطار من هذه القلة الأزهرية التى أدركت ضرورة العلوم العقلية والطبيعية لنهوض البلاد ، فإنه على الرغم من مشاركته الكثيرة فى كتب الحواشى المتعددة التى سيجىء بيانها فى موضع آخر من الكتاب ، كان صاحب فضل فى التنبيه إلى قيمة العلوم الطبيعية ، وإلى ضرورة إدخال العلوم العصرية، وله فى ذلك العبارة المأثورة التى يقول فيها : (إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها) . ولاشك أن اتصال حسن العطار ببعض علماء الحملة الفرنسية قد أفاد عقليته المتحررة . كما أن اطلاعه على كتبهم وآلاتهم التى حملوها إلى مصر معهم قد أكد له قيمة العلم والتجربة ، ويقرر لنا على مبارك فى الجزء الرابع من خططه أن الشيخ حسن العطار كان يتعجب مما وصلت إليه الأمة الفرنسية من المعارف والعلوم ، ومن كثرة كتبهم وتحريرها ، وتقريبها لطرق الاستفادة .

الفصل الثانى

حسن العطار فى عصره

١ — موجز حياة

ولد الشيخ حسن العطار سنة ١١٨٠[(١)] هـ — سنة ١٧٦٦ م بالقاهرة ، وكان أهله من المغرب فانتقلوا إلى مصر . وكان أبوه عطاراً — ومن هنا جاءه هذا اللقب. واسم والده الشيخ محمد كتّن ، وكان لهذا الوالد مشاركة فى بعض العلوم كما يدل عليه قول المترجم له فى بعض كتبه : «ذاكرت بهذا الوالد رحمه الله » . وقد استخدم الوالد ولده فى شئونه ، ولما رأى منه إقبالاً على العلم ساعده على تحصيله ، فكان يتردد على الأزهر ويحضر حلقات كبار مشايخه فى ذلك العصر ، ومنهم شيخاه محمد الأمير ومحمد الصبان .

ولما جاء الفرنسيون إلى مصر سنة ١٧٩٨ هرب إلى الصعيد[(٢)] خوفاً على نفسه من أذاهم ، ثم عاد إلى القاهرة بعد قليل فاتصل ببعض رجال الحملة من العلماء ، فأفاد منهم واطلع على كتبهم وآلاتهم وتجاربهم العلمية فكان ذلك بدء اتجاهه إلى تقدير العلوم الطبيعية والمناداة بضرورتها . وقد اشتغل فى الوقت نفسه بتعليم اللغة العربية لبعض هؤلاء العلماء الفرنسيين . ويعترف العطار باتصاله بالفرنسيين فى مقامة له يتحدث فيها عن الكتب التى رآها عند القوم قائلاً : (وكلها فى العلوم الرياضية والأدبية . وأطلعونى على آلات فلكية وهندسية) .

وقد اشتغل فى أثناء الحملة بالتدريس فى الأزهر ، فكان يقرأ على طلبته

---

(١) ذكر الزركلى فى الأعلام أنه ولد سنة ١١٩٠ هـ . والذى أثبتناه هو الصواب كما ذكره على مبارك فى الخطط التوفيقية . وذكر عمر الدسوقى صاحب كتاب « فى الأدب الحديث » أنه ولد سنة ١٨٦٦ م وهو خطأ مطبعى ظاهر .

(٢) ذكر عبد الرزاق البيطار فى «حلية» البشر أنه فر إلى دمياط ، وهو وهم والصحيح ما حققناه .

شرح الأزهرية للشيخ خالد فى علم النحو ، ويشير إلى ذلك فى مقدمة حاشيته على الأزهرية . ونراه بعد هذا — ولغير سبب معروف — يخرج من مصر فاراً إلى البلاد الرومية سنة ١٢١٧ هـ — سنة ١٨٠٢ م مستصحباً بعض كتبه ، ويشير هنا إلى ما دهم مصر (من حادثة الكفرة الفرنسيس) . ولعل الحوادث التى أعقبت خروج الفرنسيين من مصر قد أرغمته على الفرار من البلاد . وفى سنة ١٨١٠ م يدخل الشام قادماً من بلاد الروم . فيلتمس منه أهل العلم فى دمشق قراءة شرح الأزهرية ، فيفعل رجاء نفعهم . ويكون من تلاميذه هناك الشيخ حسن البيطار الذى استجازه فأجازه . . . وأقام العطار بالشام خمس سنين : ثم عاد إلى مصر سنة ١٨١٥ م بعد أن غاب عنها ثلاثة عشر عاماً قضاها فى التجوال والترحال . وكانت الأمور فى مصر قد استقرت ، وصارت ولاية البلاد لمحمد على فعاد صاحبنا إلى التدريس بالأزهر(١) .

وفى سنة ١٢٤٦ هـ — سنة ١٨٣٠ م تولى الشيخ حسن العطار مشيخة الأزهر بعد الشيخ أحمد الدمهوجى (٢) . فأداره على أحسن وجوه التدبير ، وظل فى منصبه إلى أن توفى سنة ١٨٣٥ وهو شيخ للأزهر ، حيث عين خلفاً له فى مشيخة الأزهر الشيخ حسن القويسنى المكفوف البصر ، وصاحب التآليف الفقهية الكثيرة . ومن لطائف الموافقات أن يتعاقب على مشيخة الأزهر عالمان اسم كل منهما « حسن » .

وقد استغل أحد ظرفاء ذلك الزمان من الشعراء هذه اللطيفة فقال يمدح الاثنين ويعترف بفضلهما ويجمع بين التعزية والتهنئة :

---

(١) توهم عبارة جرجى زيدان وعمر الدسوقى أن العطار بدأ يتولى التدريس فى الأزهر بعد عودته من الشام سنة ١٨١٥ ، والصواب أنه درس فى الأزهر فى أثناء الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ كما صرح هو بعبارته فى حاشيته على الشيخ خالد . . .

(٢) ذكر الأب لويس شيخو أن العطار تولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ محمد العروسى ، وهو خطأ ، والصواب ما حققناه ، وقد تابعه على هذا الخطأ الأستاذ عمر الدسوقى الذى نقل عن طرازى وشيخو .

ولئن مضى (حسن) العلوم لربه فلقد أتى (حسن) وأحسن من حسن
أنت المقدم رتبة ورياسة وديانة من ذا الذى ساواك؟ من؟

وقد عُرف الشيخ حسن العطار بمؤلفاته الكثيرة، وخاصة حواشيه على كتب النحو والتوحيد والأصول والبلاغة. كما عرف بأسلوبه الأدبى وعبارته الإنشائية الأنيقة التى كانت تجرى على طريقة الزخرف والمحسنات. وله أشعار رقيقة سنعرض لها فى فصل خاص. وبلغ من اهتمامه بالشعر أنه جمع ديوان ابن سهل الأندلسى وبوبه.

أما ميله إلى العلوم الطبيعية والرياضية والفلك والطب فيدل عليه كتبه ورسائله فى كيفية العمل بالأسطرلاب، والربعين المقنطر والمجيب، والطب والتشريح، وأشكال التأسيس فى علم الهندسة، هذا إلى ما كان من إتقانه رسم المزاول الليلية والنهارية بيديه.

وقد امتاز حسن العطار بقراءته الواسعة العميقة للكتب العربية والمعربة فى زمانه. ولم يختص بعلم معين، أو بفن بعينه من الفنون، ولكنه كان حريصاً على الإفادة من كل علم. وكان يطرز الكتب التى يقرؤها بهوامشه وتعليقاته، ويقول فى ذلك تلميذه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى: (كان له مشاركة فى كثير من العلوم، حتى فى العلوم الجغرافية، فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لإسماعيل أبى الفداء سلطان حماة المشهور أيضاً بالملك المؤيد. وللشيخ المذكور هوامش أيضاً وجدتها بأكثر التواريخ وعلى طبقات الأطباء وغيرها. وكان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية..)[1].

وتوفى العطار سنة ١٢٥٠ هـ ــ سنة ١٨٣٥[2].

---

(١) مباهج الألباب المصرية: لرفاعة الطهطاوى: مطلب أنه ينبغى للعلماء الشرعيين أن يتشبثوا أيضاً بمعرفة المعارف البشرية كالعلوم الحكمية العملية. ص ٣٧٥.

(٢) ذكر الشيخ عبد الرزاق البيطار فى حلية البشر أنه توفى سنة ١٢٣٥ هجرية، وهو خطأ خلط فيه صاحبه بين رقمى الآحاد والعشرات فى التاريخين الهجرى والميلادى.

٢ ــ شيوخ وأساتذة

يذكر الأب لويس شيخو اليسوعي ، والكونت فيليب طرازي اثنين من رجال الأزهر على أنهما بعض كبار المشايخ الذين أخذ حسن العطار العلم عنهم ، وهما الشيخ محمد الأمير ، والشيخ محمد الصبان . والواقع أن العطار نفسه لم يحوجنا إلى أن نتساءل عن أسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم ، فى إجازته العلمية التى كتبها للشيخ حسن البيطار الدمشقى فى أثناء إقامته بالشام يذكر لنا قائمة الشيوخ الذين « اقتبس أنوارهم ، واغتنم أسرارهم » . وندعه يقول بعبارته : (منهم ولله الحمد عدد كثير ، كل له قدر خطير . فمنهم العلامة الشيخ محمد الصبان ، والفهامة الشيخ أحمد بن يونس ، والشيخ عبد الرحمن المغربى ، والشيخ أحمد السجاعى ، والشيخ أحمد العروسى ، والشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ محمد الشنوانى ، والشيخ عبد الله سويدان وغير هؤلاء من السادة الشافعية . وأما من السادة المالكية فالإمام الشيخ محمد الأمير ، والشيخ محمد عرفة الدسوقى ، والشيخ أحمد برغوث ، والشيخ البيلى وغيرهم [١] ولنقف لحظة مع كل واحد من هؤلاء الذين كانوا شيوخ زمانهم فى القرن الثانى عشر . فالصبان هو صاحب الشروح والحواشى الكثيرة ، وكان ملازماً للجبرتى الوالد . ولازمه الإملاق أول أمره ، ثم أقبلت عليه الدنيا وازداد وجاهة وشهرة وخاصة بعد اتصاله بالوالى إسماعيل كتخدا . وتوفى سنة ١٧٩٢ م . ويشير إليه العطار دائماً فى حاشيته على شرح الأزهرية بقوله : شيخنا .

والشيخ أحمد بن يونس كان من المشتغلين بالنحو والأصول والجدل ، وله حواش ورسائل كثيرة ، وكان تلميذاً للجبرتى الوالد مدة ، وتوفى سنة ١٧٩٤ م. والشيخ أحمد السجاعى كان من فقهاء الشافعية بمصر ، وله شروح وحواش ومتون ورسائل فى الفقه والأدب والتصوف والمنطق . وقد اشتهر بحاشيته على شرح القطر لابن هشام النحوى . وتوفى سنة ١٧٨٣ م . والشيخ أحمد العروسى كان

---

(١) حلية البشر جـ ١ ص ٤٩١ .

شيخاً للأزهر بعد وفاة الشيخ أحمد الدمنهورى ، وقد تتلمذ عليه الجبرتى المؤرخ وترجم له ، ولما توفى سنة ١٧٩٣ رثاه الشاعر السيد إسماعيل الخشاب بقصيدة مطلعها :

تغير وجه الدهر وازور جانبه ... وجاءت بأشراط المعاد عجائبه

وكدر صفو العيش وقع خطوبه ... وقد كان ورداً صافيات مشاربه

وقد اشتهر العروسى بحاشيته على الملوى على متن السمرقندية فى الاستعارات .

والشيخ عبد الله الشرقاوى كان فقيهاً نحويًّا محدثاً مؤرخاً ، تخرج فى الأزهر وتولى مشيخته لبضعة عشر عاماً وكانت الحملة الفرنسية فى خلال عهده بالمشيخة ، وكان أحد العلماء العشرة الذين كوّن منهم بونابرت ديوان القاهرة ، وقد اشترك فى البيان الذى أكرهوا على توقيعه للتحذير من معارضة سلطات الاحتلال الفرنسى . وقد اشتهر بكتابه « تحفة الناظرين ، فيمن ولى مصر من السلاطين » . ويجىء ترتيبه الحادى عشر فى شيوخ الأزهر منذ إنشاء هذه الوظيفة . والشيخ محمد الشنوانى كان من علماء الأزهر المشتغلين بالفقه والحديث والنحو ، وتولى مشيخة الأزهر بعد وفاة الشرقاوى مباشرة ، وظل فيها ست سنوات ، وله حواش فى الحديث والتوحيد ، وتوفى سنة ١٨١٨ م . والشيخ عبد الله سويدان كان من علماء الأزهر المشاركين فى الحديث والوعظ والأصول ، واشتهر بسويدان ، وكان كفيف البصر ، وله مؤلفات فى مصطلح الحديث وتوفى سنة ١٨١٩ م والشيخ محمد الأمير كان من فقهاء المالكية الكبار وعالماً بالعربية . وهو من بلدة سنبو من صعيد مصر ، ولهذا سمى بالسنباوى ، واشتهر بالأمير لأن جده كانت له إمرة فى الصعيد ، وهو كالشيخ حسن العطار من حيث أصوله المغربية . وأكثر كتبه حواش وشروح وتقارير . واشتهر بحاشيته على كتاب المغنى لابن هشام ، وبشرحه لمختصر خليل فى الفقه المالكى ، وكان شيخاً مبجلا ممدحا . وللشاعر إسماعيل الخشاب فيه مدائح متنوعة مذكورة فى ديوانه المطبوع بالجوائب ، وتوفى الأمير سنة ١٨١٧ م . والشيخ محمد عرفة الدسوقى كان من علماء المالكية ،

وله مشاركات فى الفقه والكلام والبلاغة والنحو والهندسة والهيئة والتوقيت ، واشتهر بحاشيته على المغنى ، وحاشيته على شرح السنوسى على مقدمة أم البراهين فى العقائد ، وحاشيته على شرح البردة لجلال الدين المحلى . وتوفى سنة ١٨١٥ م . والشيخ أحمد برغوث كان من علماء المالكية كذلك ، وهو من مواليد قرية اليهودية بالبحيرة ، وكان فيه انعزال عن الناس ، وانكسار وتواضع . ويذكر المؤرخ عبد الرزاق البيطار أنه (لم يتزى بزى الفقهاء ، ولم يظهر بمظاهر العلماء ويمشى فى حوائجه لنفسه . . .) وتوفى سنة ١٨٠٩ م . والشيخ أحمد البيلى كان من علماء المالكية أيضاً ، وقد ترجم له الجبرتى ، وعلى مبارك ، والبيطار ، وعمر رضا كحالة ، وهو من بلدة بنى عدى من صعيد مصر . وقد اشتهر بحافظة قوية غريبة ، فكان يملى على الطلاب ما ذكره أصحاب المتون والحواشى دون رجوع إلى الكتب وتوفى سنة ١٨٠٠ م .

هؤلاء هم شيوخ الشيخ حسن العطار وأساتذته . وهم كما ترى يمثلون ثقافة الأزهر واتجاهاته العلمية والفكرية فى ذلك العصر . وإن كان المترجم له قد رأى ببعد نظره ، وسعة أفقه ، وشدة تطلعاته أن يتجاوز الدائرة التى كانت تحيط بعلوم الأزهر ومؤلفات رجاله إلى دائرة أوسع تلائم العصر ، وتحقق تسخير الإنسان لقوى الطبيعة فى هذا الكون الرحيب . . .

٣ ــ تلاميذ نجباء

إذا كان الشيخ حسن العطار قد صُنع على يد طائفة كريمة من علماء وقته ومشهورى عصره ، فقبس منهم ألوان المعارف التى كانت سائدة فى زمانه ، فإن الله قد جعل منه شيخاً مباركاً وأستاذاً كريماً تخرج بعلمه وأدبه جماعة من كبار الرجال فى عصره . ويكفيه فخراً أن يكون الشيخ رفاعة الطهطاوى رائد الفكر وإمام النهضة الحديثة فى القرن التاسع عشر أحد تلاميذه النجباء . ويذكر مؤرخنا عبد الرحمن الرافعى أن الشيخ رفاعة الطهطاوى أخذ العلم عن الشيخ حسن

العطار . فأحبه الشيخ لما آنسه فيه من الذكاء والانكباب على العلم ، وقربه إليه ، وحفه برعايته . وكان التلميذ رفاعة يتردد على شيخه كثيراً فى بيته ، ويأخذ عنه العلم والأدب والجغرافية والتاريخ . ولما كان العطار ميالا بطبعه إلى العلوم العصرية ولا يرى الانحصار فى دائرة كتب الشرع فحسب ، فقد أودع هذا الميل فى نفس تلميذه رفاعة الطهطاوى ، مما أهله بعد ذلك ليكون إماماً للبعثة العلمية فى باريس ، ومما فتح ذهنه إلى البحث وسلامة التفكير والإسهام فى نقل العلوم عن الغربيين حتى يفيد منها أهل وطنه . وهنا يظهر فضل العطار على رفاعة الطهطاوى ، فهو أول من وجهه إلى الاغتراف من موارد العلم والأدب ، وهو أول من قوّم عبارته وحررها من كثير من قيود عصره ، وهو أول من دله على قيمة العلوم العملية الطبيعية وضرورتها بما لا يقل عن أهمية العلوم الشرعية .

ولقد كان رفاعة أثيراً عند شيخه حسن العطار ، وطالما فتح له الشيخ بيته وصدره وأذنه ليسمعه من رائق الشعر وفائق النثر (ما يستدل به شيخه على أنه وحيد عصره ، وفريد مصره ، وأنه صاحب القريحة الوقادة ، والفكرة النقادة) . وما ضن الشيخ على تلميذه بعطف ولا رعاية ولا توجيه ، فهو الذى اختاره عند محمد على ليكون إماماً لبعثة باريس ، وهو الذى أوصاه بتأليف كتاب فى هذه الرحلة ، وهو الذى فتح عينيه على القيم الكبرى للحياة والعلم الحقيقى لا علم الحواشى والشروح . . . وندع المؤرخ صالح مجدى يحدثنا فى كتابه « حلية الزمن » عن هذه التلمذة قائلاً : (وأما تلمذته — يعنى رفاعة الطهطاوى — للشيخ حسن العطار المتوفى فى اثنين وعشرين من شهر ذى القعدة سنة خمسين ومائتين وألف (١) وقد آلت مشيخة الأزهر إليه قبل العلامة الشيخ حسن القويسنى ، فكانت مستمرة من مبدأ دخول صاحب الترجمة إلى خروجه من الأزهر بمعية من أرسلوا من مصر إلى باريس لاكتساب العلوم الأجنبية ، حيث انتخبه لذلك العلامة المشار إليه ، وأوصاه بعمل رحلته الباريسية الآتى ذكرها عند بعض مؤلفاته وتعريباته .

(١) يحقق لنا هذا النص سنة وفاة الشيخ حسن العطار ، ويصحح ما ذكره المرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار خطأ فى حلية البشر .

وكان للمرحوم فضيلة الامتياز عند الأستاذ العطار عن سائر طلبته ، وكثيراً ما كان يلازم بيت الأستاذ المذكور فى غير الدروس ليتلقى عنه علوماً أخرى ، كالتاريخ والجغرافية والأدب) [١] .

وثانى تلاميذ الشيخ حسن العطار هو الشيخ حسن قويدر ، وهو مغربى الأصل كأستاذه ، ولكن أسرته نزحت إلى فلسطين وأقامت بها ، وولد هو بالقاهرة . وكان مشهوراً بالعلم والأدب ، ولكنه جمع بين ذلك وبين أسباب الرزق فكان يتعاطى التجارة بين مصر والشام ، ويملأ أوقات فراغه بالتأليف والمذاكرة فى العلوم . ولقد بلغ من إعجابه بشيخه العطار أنه ألف كتاباً فى الإنشاء والمراسلات عنوانه « زهر النبات » على غرار الكتاب الذى ألفه حسن العطار فى الإنشاء ، كما أنه شرح منظومة حسن العطار فى النحو شرحاً مطولاً ، ولم يكتف التلميذ بشرح منظومة أستاذه بل قرظها شعراً يقول فيه :

منظومة الفاضل العطار قد عبقت ... منها القلوب بريا نكهة عطره
لو لم تكن روضة فى النحو يانعة ... لما جنى الفكر منها هذه الثمره
فى ظلمة الجهل لو أبدت محاسنها ... والليل داج أرانا وجهها قمره
قالوا جواهر لفظ ، قلت : لا عجب ... بحر البلاغة قد أدى [٢] لنا درره

ومن مؤلفاته : نيل الأرب فى مثلثات العرب ، وشرح منظومة العطار فى النحو ، وزهر النبات ، وشرح على مزدوجته البديعية ، ورسالة الأغلال والسلاسل ، فى مجنون اسمه عاقل [٣] .

وثالث تلاميذ حسن العطار هو الشيخ محمد عياد الطنطاوى . ونكتفى هنا بما ذكره المستشرق الروسى الكبير أغناطيوس كراتشكوفسكى فى كتابه « حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى » قائلاً : (كذلك كان من معلمى الطنطاوى ،

---

(١) حلية الزمن بمناقب خادم الوطن — لصالح مجدى ص ٢٥ .
(٢) الآداب العربية للويس شيخو — جـ ١ ص ٥٣ ، وحلية البشر للبيطار جـ ١ ص ٥٠٥ .
(٣) أعيان البيان لحسن السندوبى ص ١٩ .

حسن العطار ١٧٦٦ هـ — ١٨٣٤ م[1] . ولم يكن الشيخ حسن العطار عالماً فحسب ، بل وشاعراً أيضاً ، وقد رأى من المستطاع أن يتقرب من الفرنسيين ليتعرف إلى تفوق ثقافتهم ، ولم يرفض فى أيام شيخوخته أن يكون محرراً لأول جريدة عربية مصرية أسسها محمد على ، وفى السنوات الأخيرة من عمره صارت إليه مشيخة الأزهر)[2] .

أما رابع تلاميذ حسن العطار فهو الشاعر المصرى الشيخ محمد شهاب الدين ، من مواليد مكة ، ومن المقيمين بمصر . ويذكر جرجى زيدان [3] أنه تفقه فى الأزهر على الشيخين : العروسى وحسن العطار ، كما يذكر ذلك الأب لويس شيخو اليسوعى . ويزيد شيخو على هذا قائلاً : إنه لما أنشأ الشيخ حسن أول جريدة (كذا) طبعت فى الشرق وهى الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨ اتخذ شهاب الدين كمساعد له فى إنشائها (كذا) ثم خلفه فى إدارتها سنة ١٢٥٢ — سنة ١٨٣٦ .

وهذا كلام يحتاج إلى الوقوف أمامه ، فإن مسألة إنشاء حسن العطار للوقائع وتحريره فيها لا تزال موضع خلاف بين المحققين . . . وسنعالجها فى فصل خاص . وقد ترك لنا الشاعر محمد شهاب الدين من مؤلفاته « سفينة الملك ، ونفيسة الفلك » وفيها نماذج كثيرة من الموالى والموشحات والأزجال والأهازيج التى يتغنى بها ، كما ترك لنا « ديوان شهاب الدين » وكان لنا حظ دراسته وتحليله فى كتابنا « تراجم عربية » .

٤ — بين التدريس والمشيخة

جمع الشيخ حسن العطار فى حياته المباركة بين التدريس فى الأزهر أول عمره ، ومشيخة الجامع الأزهر فى ختام حياته . وكثير من علماء الأزهر المشهورين

(١) هذا التاريخ الميلادى يحتاج إلى تصحيح ، وصوابه سنة ١٨٣٥ كما ذكرنا قبلا .

(٢) انظر كتاب « حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى » من مراجعتنا وتحقيقنا وتعليقنا ، وهو من منشورات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٤ ص ٢١٣ .

لم يجمعوا بين الاثنين ، كالشيخ الأمير ، والصبان ، وعلى الصعيدى ، وأحمد السجاعى ، ومحمد عرفة الدسوقى وغيرهم .

وتوهم عبارة جرجى زيدان ، والأب لويس شيخو ، والكونت فيليب طرازى أن العطار ابتدأ التدريس فى الأزهر بعد عودته من رحلته الطويلة إلى بلاد الروم والشام سنة ١٨١٥ م ، وقد نقل الأستاذ عمر الدسوقى عنهم هذه العبارة بما تحمله من الوهم والإيهام دون تمحيص[١] . والحق أنها مزلقة كان يجب التفطن إليها ! فإن العطار نفسه يصرح فى مقدمة كتابه : « حاشية على شرح الأزهرية فى علم النحو للشيخ خالد » بأنه كان يدرس هذا الكتاب ويقرؤه على طلبته بالأزهر فى خلال الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٩ ؛ كما أن العطار فى إجازته التى كتبها للشيخ حسن البيطار العالم الدمشقى ذكر فى ختامها أنه (خادم العلم بالأزهر الشريف) . وكان ذلك بالطبع فى أوائل سنة ١٨١٠ م – أى قبل عودته إلى مصر بخمس سنوات .

وكانت حلقة الشيخ العطار بالأزهر تغص بالطلاب ، فقد كان العلماء – كما ذكره مؤرخ معاصر – يتركون حلقات غيره ، ويتكاثرون على حلقته يستمعون[٢] . وقد نقل هذا المؤرخ هذه الحقيقة عن كتاب الخطط التوفيقية لعلى مبارك حيث يقول : (وقد مضت مدة على تفسير البيضاوى لا يقرؤه أحد ، فحضره أكابر المشايخ . فكانوا إذا جلس للدرس تركوا حلقتهم وقاموا إلى درسه)[٣] .

ولا شك أن تحرر الشيخ حسن العطار الفكرى وبعده من الجمود ودعوته الجديدة إلى الأخذ بالعلوم الحديثة مع الاهتمام بالعلوم القديمة قد جذب إليه الطلاب من كل فج ، وهداهم إلى مجالسه فى أثناء تدريسه بالأزهر . ويستوى فى ذلك مقامه بمصر أم بالخارج . ففى مقامه بدمشق لفت إليه أنظار طلبة العلم

---

(١) انظر « فى الأدب الحديث » لعمر الدسوقى جـ ١ ص ٤٦ ، وزيدان جـ ٤ ص ٢٣٢ ، وتاريخ الصحافة العربية لطرازى جـ ١ ص ١٢٩ وتاريخ الآداب العربية لشيخو جـ ١ ص ٥٢ .

(٢) مصر فى القرن الثامن عشر – لمحمود الشرقاوى – جـ ١ ص ٥٠ .

(٣) الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٣٩ .

هناك (فتلقاه أهلها بما لاق ، وعقدوا على تفوقه وتفرده بالفضائل كلمة الاتفاق) كما يقول مترجم سيرته عبد الرزاق البيطار .

ومن عجب أن النقص الذى كان يشكو منه العطار فى برامج الأزهر وكتبه واتجاهاته العلمية قبل أن تؤول إليه مشيخة الأزهر ، لم يتناوله بالإصلاح والمعالجة بعد أن آلت إليه المشيخة . وقد كان يُرجى منه — بعد تنبهه لحالة الأزهر وهو مدرس فيه — أن يعمل شيئاً لإصلاحه ، ولكنه لم يصنع فى هذا السبيل شيئاً . ولعله جارى اتجاه محمد على فى إغفال شأن الأزهر . فقد رأى هذا الوالى — بما أوتيه من مكر عميق — أن يترك الأزهر على حاله ونظامه القديم ، مخافة أن يثير سخط العلماء إذا حاول إصلاحه وجعله يساير حركة التقدم العلمى الحديث. ولا نقول — كما قال عبد الرحمن الرافعى — أنه لم يجد بين العلماء من يضطلع بهذه المهمة ويعهد إليه بها [١] ، فقد كان من الممكن أن يقوم بهذا الإصلاح الشيخ حسن العطار . وهو قادر عليه . وكان من الممكن أن يقوم به الشيخ رفاعة الطهطاوى ، ولكن الوالى رأى أن الوقت لم يكن مناسباً بعد للإصلاح ، وأن النفوس لم تكن مهيأة له .

وقد تولى العطار مشيخة الأزهر سنة ١٨٣٠ بعد ما أوفت سنه على الخامسة والستين ، فجاء بعد الشيخ أحمد بن على الدمهوجى الشافعى — لا بعد الشيخ أحمد [٢] العروسى كما ذكر خطأً بعض المؤرخين ومن تابعهم من المؤلفين . ومن هنا لا يعتد بما جاء فى كتب « الآداب العربية فى القرن التاسع عشر » و « تاريخ الصحافة العربية » و « فى الأدب الحديث » فإنها تنقل الخطأ عن بعضها بعضاً .

ويلوم المرحوم العالم المحقق الأستاذ عبد المتعال الصعيدى ، الشيخ حسن العطار على إهماله إصلاح الأزهر واكتفائه (بذلك الصوت الخافت الذى أرسله فى مواضع يصعب العثور عليها من حاشيته على شرح جمع الجوامع ، بل كان

---

(١) عصر محمد على ج ٣ ص ٦٠٨ .

(٢) ذكر الأب شيخو أن اسمه محمد العروسى ، والصواب أحمد — ص ٥٢ .

يجب عليه أن يجهر بذلك الصوت بين جنبات الأزهر لينبه أهله من غفلتهم ، ويوقظهم من رقدتهم[١]) كما يتهمه بأنه كان ضعيف الروح (فلو رزق الروح القوية لأدخل الإصلاح فى الأزهر بالقوة ، كما أدخل محمد على الإصلاح فى مصر بالقوة)[٢] ونسى الأستاذ الصعيدى أن محمد على لم يكن فى نيته إصلاح الأزهر لأسباب ليس هنا مجال مناقشتها فى مقام ضيق . . .

٥ – بين العطار والشاعر بطرس كرامة

تصادفنا فى الجزء الرابع من « الخطط التوفيقية » عبارة نقلها المؤرخ على مبارك عن الشيخ حسن العطار يقول فيها المترجم له بعبارته : (قدم علينا بمصر عام سبعة وثلاثين بعد المائتين والألف ، كبير رجال الدروز لقيام أهل الجبال عليه ، ملتجئاً بوزيرها محمد على ؛ وقدم بصحبته بطرس النصرانى ، فاجتمع بالفقير – يعنى العطار نفسه – مراراً ، ورأيت منه أدباً جماً ، ومحاضرة ومعرفة بالتواريخ والأيام والأنساب والنحو وغير ذلك ، وكان يكتب الخط الحسن ، وامتدحنى بقصيدة منها :

أما الذكاء فإنه ... أذكى وأبرع من إياسه
أضحى البديع رفيقه ... لما تفرد فى جناسه
فى أى فن شئته ... فكأنه بانى أساسه)

فمن هو كبير الدروز هذا الذى ثار عليه أهل الجبال والتجأ إلى مصر محتمياً بمحمد على ؟ ومن هو بطرس النصرانى هذا الذى جاء بصحبته ؟ والذى كان جم الأدب : حسن المحاضرة ، عارفاً بالتاريخ والأيام والأنساب والنحو ، والذى كان حسن الخط ، حاضر الشعر إلى حد أنه مدح الشيخ حسن العطار بقصيدة

(١ ، ٢) تاريخ الإصلاح فى الأزهر ج ١ ص ٢٢ ، ٢٤ للشيخ عبد المتعال الصعيدى .

روى لنا المترجم ثلاثة من أبياتها ؟

الحق أن هذا الخبر قد يقبله القارئ العادى بدون أن يلفت نظره فيه شىء ، ولكن القارئ المتعمق المتفطن للأحداث وتواريخ الرجال يقف عنده وقفات طويلات . . . فكبير الدروز هذا لم يكن – كما روى ، وهماً ، على مبارك عن العطار – رجلا من الدروز ولا كبيرهم ! وإنما هو الأمير بشير الشهابى ، الذى كان مسيحياً – ولم يكن درزياً فأعلن إسلامه . أما الشيخ بشير جنبلاط فكان كبير الدروز . وليس هو من بيت الأمراء الشهابيين . ولكن اسم « بشير » اختلط على الراوى والناقل . فبشير الشهابى المسيحى الذى اعتنق الإسلام والذى جاء إلى مصر وفى صحبته « بطرس النصرانى » هو غير الشيخ بشير جنبلاط كبير الدروز ، وهو لم يجئ إلى مصر . ولم يكن له شأن مع محمد على . والحق أن أهل الجبال – يعنى جبال لبنان – قد ثاروا على الأمير بشير الشهابى لأسباب سياسية لا محل لذكرها هنا ، وكانت أسرة جنبلاط الدرزية تؤيد الأمير بشير الشهابى وتناصره[1] ليحفظوا بهذا نفوذهم وسطوتهم أمام الأسر الدرزية الأخرى ؛ ومن هنا جاءت العداوة بين الأمير بشير وبين الدروز . ولم يخضع بعض أهل لبنان لسلطان الأمير بشير الشهابى وأبوا أن يدفعوا له المال المفروض عليهم ، فقامت بينه وبينهم حروب ودسائس انتهت بمجيئه إلى مصر سنة ١٨٢١ ملتجئاً إلى محمد على ، ومتفاهما معه على بعض الأوضاع فى الشام ، وفى صحبته شاعره الأديب اللبنانى الكبير بطرس كرامة صاحب ديوان « سجع الحمامة » وأقرب المقربين إلى الأمير بشير . هذا هو « كبير الدروز » الذى أشار إليه حسن العطار فى كلامه عن نفسه ، وهذا هو « بطرس النصرانى » الذى كان فى صحبته . . .

وقد روى الكونت طرازى ، والأب لويس شيخو البيتين اللذين قالهما الشاعر اللبنانى بطرس كرامة فى مدح الشيخ حسن العطار حين قابله بمصر لأول مرة ؛ وهما :

---

(١) تراجم مشاهير الشرق : لزيدان جـ ١ ص ٦٤ – ٦٨ .

قد كنت أسمع عنكم كل نادرة حتى رأيتك ياسؤلى ويا أربى[1]
والله ما سمعت أُذنى بما نظرت لديك عيناى من فضل ومن أدب

على أن الأبيات الثلاثة التى رواها حسن العطار نفسه هى من قصيدة طويلة للشاعر بطرس كرامة فى مدحه مطلعها :

وافى يطوف بشمس كاسه قمر تلثم فى نواسه[2]
طاب الصبوح فخذ على ورد بوجنته وآسه ...

وتبلغ أبياتها تسعة وعشرين بيتاً .

والحق أن الشاعر كرامة لم يمدح حسن العطار وحده فى مصر ، بل مدح العالم الكبير الشيخ المهدى ؛ ولكنه خالط فى مدحه بين العلماء والقيان ، فمدح بمصر مغنية فى عصر محمد على كانت تدعى « أم رضوان » ، فقال وأبدع :

رعى الله مصراً إن مصراً لجنة يزول بها من صاحب الهم همُّه
ففى جنة الفردوس رضوان وحده وفى مصر رضوان كذاك وأمُّه !

والحق أن « كرامة » أعجب بمصر كلها ما بين علمائها وقيانها ، ورجالها ونسائها ، فقال يمدحها بقصيدة مطلعها :

تجلت لدينا فى محاسنها مصر فراق لنا وجه المسرة والبشر

ولقد اختلط الأمر على مؤلف كتاب « مصر فى القرن الثامن عشر » فذكر أن الذى قدم إلى مصر فى أيام محمد على وتعرف إليه حسن العطار (هو رجل من الدروز اسمه بطرس)[3] . ولن نضيف هنا تصحيحاً جديداً ، فبطرس

---

(١) تاريخ الصحافة العربية ج ١ ص ١٣٠ . و « تاريخ الآداب العربية » لشيخو ص ٥٢ . وديوان كرامة ص ٢٩١ .

(٢) ديوان سجع الحمامة ص ٣٠٠ .

(٣) صفحة ٥٠ من الجزء الأول من كتاب « مصر فى القرن الثامن عشر » للأستاذ المؤرخ محمود الشرقاوى . وهو كتاب نفيس فى موضوعه .

كرامة لبنانى مسيحى كان شاعر الأمير بشير الشهابى ، وما كان درزيًّا فى يوم من أيام حياته .

٦ ــ التحرير فى الوقائع المصرية

فى بضعة من كتب تاريخ الأدب والنقد والتراجم التى ترجمت للشيخ حسن العطار نجد أنها تكاد تجمع على أن هذا الموجه الأول لحركة الأخذ بالعلوم الحديثة قد اشتغل بالتحرير فى صحيفة الوقائع المصرية التى أنشأها محمد على سنة ١٨٢٨ هـ وجعلها لسان حال الحكومة ، والجريدة الرسمية للدولة . فنرى الأب لويس شيخو يذكر أنه (لما أنشأ الشيخ حسن العطار أول جريدة طبعت فى الشرق وهى الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨ اتخذ كمساعد له فى إنشائها شهاب الدين المذكور ــ يعنى الشاعر شهاب الدين[١]) . ونرى مؤلف تاريخ الصحافة العربية يذكر فى الفصل الذى كتبه عن الوقائع المصرية أنه قد تولى تحريرها بعد رفاعة الطهطاوى كثير من أرباب الشهرة الواسعة فى العلم : من أمثال فارس الشدياق ، وحسن العطار[٢] . وعن هذين المصدرين نقل المؤرخ جرجى زيدان[٣] . وظل الخبر ينقل من مصدر إلى مصدر حتى رواه الأساتذة أحمد الإسكندرى وأحمد أمين وزملاؤهما فى كتاب « المفصل » على الصورة الآتية : (وعاد حسن العطار إلى مصر فتولى تحرير الوقائع المصرية)[٤] . وكرر هؤلاء الأساتذة هذا الخبر فى كتاب « المنتخب من أدب العرب » الذى كلفوا جمعه وشرحه من قبل وزارة التربية والتعليم . وفى معجم « المنجد » للأب لويس معلوف اليسوعى أن العطار هو محرر جريدة الوقائع المصرية لأمر محمد على . ويذكر صاحب كتاب « فى الأدب الحديث[٥] » أن العطار عهد إليه بتحرير الوقائع المصرية بعد أوبته

---

(١) الآداب العربية جـ ١ ص ٨٤ .

(٢) تاريخ الصحافة العربية لطرازى جـ ١ ــ ص ٤٩ ــ ٥٠ .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية ــ جـ ٤ ص ٥٢ .

(٤) المفصل ص ٣٣٥ .

(٥) هو الأستاذ عمر الدسوقى

إلى مصر [١] . ويردد الأستاذ محمود الشرقاوى هذه الرواية قائلاً إن محمد على اختار الشيخ حسن العطار محرراً للوقائع المصرية أول صدورها [٢] .

ونجد من أصحاب الموسوعات فى تراجم الرجال أن الأستاذ خير الدين الزركلى[٣] يتفق مع الأب لويس شيخو فى أن حسن العطار تولى إنشاء جريدة الوقائع المصرية فى بدء صدورها . فهما لا يكتفيان بأن ينسبا إليه القيام بتحرير الوقائع بل ينسبا إليه القيام بإنشائها . . . على حين أن الأستاذ عمر رضا كحالة — مؤلف موسوعة معجم المؤلفين — لا يتعرض لحكاية الوقائع المصرية بنفى أو تأكيد بل يسقطها من حساب السيرة . . .

أما الأستاذ سامى بدراوى فله دراسة جيدة عن الشيخ حسن العطار فى مجلة « المجلة » . وفيها يكرر حكاية تحرير العطار للوقائع المصرية فى ثلاثة مواضع من مقاله . ويزيد أن سر اختياره أول محرر للوقائع المصرية يكمن وراء جمال أسلوبه [٤] . ويتقدم كاتب هذا المقال خطوة فى الإثبات فيشير إلى بعض الإشارة الدالة على موقف العطار السياسى فى عهد محمد على قائلاً : (أما الإشارة الثانية إلى موقف العطار السياسى فى عهد محمد على فنجدها فى الوقائع ، فى الفترة التى ولى فيها العطار تحرير القسم العربى منها ١٨٢٨ — ١٨٣٠ م . وخلاصة هذه الإشارة أن أحد محررى الوقائع واسمه عزيز أفندى كان يحرص على أن يعرض الأخبار التى ترد إليه من محمد على عرضاً موجهاً : أى أنه كان يعلق عليها برأيه الشخصى ، ولم يرض ذلك محمدا عليا ؛ فلفت نظر عزيز أفندى مرة ومرة . وفى الثالثة نحاه نهائيًّا عن الوقائع . وبعد ذلك بقليل نجد رئيس التحرير نفسه يعتذر عن كتابته بعض أشياء لم يكن مطلعا عليها فوقع بها الخطأ ، وأن سعادته — يعنى محمد على — أمر بأنه لا يكتب شىء إلا بعد الاطلاع على حقيقته ليكون

---

(١) فى الأدب الحديث : لعمر الدسوقى ص ٤٦ .

(٢) مصر فى القرن الثامن عشر — جـ ١ ص ٥٠ .

(٣) انظر معجمه الكبير (الأعلام) جـ ٢ ص ٢٣٦ .

(٤) مجلة المجلة عدد مارس سنة ١٩٦٥ ص ٣١ — ٣٣ — ٣٥ .

خالياً من السهو والخطأ . ويشكر المحرر محمداً علياً لتجاوزه عن هذا الأمر ، بل واختياره المحرر عضواً فى المجلس العالى من غير استحقاق) [١] .

هذه قصة اشتراك الشيخ حسن العطار فى تحرير الوقائع المصرية وفى إنشائها ، ولكننا نجد مؤرخاً حديثاً للصحافة ، بل مؤرخاً للوقائع المصرية نفسها ينكر مشاركة العطار فى تحريرها ؛ ويقول بنص عبارته : (وعندى من الأسباب ما يجعلنى أستبعد إلقاء أمر التحرير العربى فى جريدة الوقائع إلى الشيخ حسن العطار . فقد أنكرته الوثائق الرسمية إنكاراً تامًّا ، بينما حرصت على ذكر تفاصيل إدارة الوقائع وتحريرها . وهى تفاصيل دون قدر الرجل ومكانته كمحرر اللغة العربية فى الصحيفة الرسمية ، وكان أحق بالذكر منها ، والشيخ حسن العطار شاعر ناثر لا ينافسه فى ميدان الإنشاء والتحرير منافس . . . وما أثر عن أسلوب العطار لا يتفق مطلقاً مع تحرير الوقائع التى هوى أسلوبها وكاد يصل فى معظم أعدادها إلى اللغة الدارجة) [٢] .

ولا بد فى ختام هذا الفصل من أن نصحح وهماً كبيراً وقع فى كتاب « أدب المقالة الصحفية فى مصر » وفى الجزء الأول منه . فقد ذكر مؤلفه الفاضل أنه كان يشرف على تحرير القسم العربى بالوقائع رجلان هما : السيد جمال الدين الأفغانى ، ومحمد بن إسماعيل ، والشيخ عبد الرحمن الصفتى ! ! وواضح أن فى الكلام اضطراباً ساقه هذا المساق ، الذى لا يعز كشفه على فطنة المؤلف وعلمه . كما لا يعز تصويبه على القارئ الكريم الذى يعرف أين مكان السيد جمال الدين الأفغانى من عصر محمد على ؟ ؟

٧ — بين العطار والجبرتى المؤرخ

شاءت الأقدار أن يلتقى ثلاثة من أعلام مصر فى عهد الحملة الفرنسية وفى عهد محمد على على صداقة متينة لم تنل منها الأيام ، على الرغم من اختلاف

---

(١) مجلة المجلة — عدد مارس سنة ٦٥ ص ٣٥ .

(٢) تاريخ الوقائع المصرية : ص ٦٧ — ٦٨ نشر مكتبة الآداب بالقاهرة .

مشاربهم فى الحياة . وهؤلاء الثلاثة هم الشاعر إسماعيل الخشاب ، والعالم حسن العطار ، والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتى . وسنلتقى فى فصل ... بل مع هذا الثالوث فى مطارحه وفى مطارحاته . . . ولكننا هنا فى هذا الفصل سنتحدث عن وجهتى حسن العطار والجبرتى ورأيهما فى الحكم وفى الدولة الجديدة التى عهدت إليها الأقدار أن تتولى زمام مصر فى أول القرن التاسع عشر ، وهى الدولة التى أقامها محمد على . ويلفت النظر عند نظرتنا إلى هذين الصديقين المفكرين اختلاف منهجهما فى الحياة وخاصة عند قيام حكم محمد على . فالجبرتى المؤرخ كان مقدراً لذكاء محمد على ونشاطه ودهائه ومضائه فى كل أمره ، وشهامته وتدبيره ، ولكنه كان ينقم عليه أموراً منها ظلمه وظلم ولده إبراهيم واستبداده بالأمر ، وطغيان شخصه على الشخصية المصرية .

والجبرتى — فى تاريخه العظيم — يقف للدولة العلوية الجديدة بالمرصاد . يسجل أخطاءها ، ويرصد عيوبها . فلا يخشى مثلاً أن يقول فى كتابه عن محمد على إنه « يمتاز بالدهاء، والحيلة، والمداهنة »، بل وصفه مؤرخنا فوق هذا بحلفه الأيمان الكاذبة للنقيب السيد عمر مكرم (على سيره بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع ، والإقلاع عن المظالم . . . فيتورط المخاطب بذلك القول ، ويظن صحته ! !)

والجبرتى المؤرخ كان يرى دولة محمد على دولة ظالمة ، ويسمى رجالها وأنصارها بالظالمين . . . وكان يرى أن الذين أعانوها على قيامها مشاركون لها فى الظلم . . . وذلك كان رأيه فى عمر مكرم حين نفاه محمد على، (فإن الذى وقع له بعض ما يستحقه ، ومن أعان ظالماً سلط عليه ، ولا يظلم ربك أحداً . . .)

والجبرتى يصف ما فعله إبراهيم بن محمد على بأهل الصعيد من تعذيب قائلاً : (. . . فإنه فعل بهم فعل التتار ، عندما جالوا بالأقطار ، وأذل أعزة أهلها . . . وليس ذلك ببعيد على شاب جاهل ، سنه دون العشرين عاماً ، وحضر من بلده ولم ير غير ما هو فيه . . . لم يؤدبه مؤدب ، ولا يعرف شريعة ولا مأمورات ، ولا منهيات . . .) (١) .

---

(١) دراسات فى الأدب العربى والتاريخ — لمحمد عبد الغنى حسن — ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

ولقد فر العطار من القاهرة حين جاء الفرنسيون إلى مصر ، كما فر الجبرتى المؤرخ إلى مزرعته فى بلدة أبيار ، وعاد العطار من مفره بالصعيد كما عاد الجبرتى . . . ولكن العطار اتصل بعلماء الحملة اتصالاً قريباً ، على حين كان الجبرتى يباعد نفسه منهم .

وعلى حين نرى هذا النقد اللاذع ، وهذا الغضب المصبوب على محمد على ورجاله من الجبرتى المؤرخ ، نرى الشيخ حسن العطار يمدح محمد على ويغلى فى مدحه فى مفتتح كتابه (إنشاء عطار) واصفاً إياه بأنه (مدبر الممالك ، مؤمّن المسالك ، منوّر الحوالك ، زينة الأسرة والأرائك ، قامع البغاة ، مبيد الطغاة . . .) إلى آخر هذه التراتيل المعروفة التى لا يحذقها إلا مصانع كاسب لمودات الرجال . . . بل نراه يتجه بالشعر إلى مدح إبراهيم « باشا » عند عودته ظافراً من حروب الشام قائلاً فى مطلع القصيدة :

سَمهَرِىٌّ ينثنىَ أم غصنُ بان ؟ أم قوام دونه صبرىَ بان ؟
صان بالعسّال معسولَ اللّمى وتهادى ، هادماً ما أنا بان...

والقصيدة طويلة فارجع إليها فى الجزء الرابع من خطط على مبارك .

ولقد عرف العطار طريق الوصول إلى محمد على ، فقد كان له — كما يروى صاحب الخطط — (اتصال خاص بسامى باشا وأخويه باقى باك وخير الله بك ، وله عليهم مشيخة : وبواسطتهم كان يجتمع على المرحوم محمد على باشا فيجله ويعظمه ويعرف فضله) . أما الجبرتى فقد كان يتحاشى أبواب أصحاب السلطان ، وخاصة بعد أن أصيب بمصرع ولده خليل نتيجة لغضب سليمان أغا السلحدار أحد الدهاة فى بلاط محمد على .

وقد يقال — كما قاله الأستاذ خليل شيبوب — إن ائتلاف الأمزجة ، واتفاق الطبائع هو السبب فى توثيق أواصر المحبة بين العطار والجبرتى ، ولكن الذى لا شك فيه أن اختلاف نظريهما إلى معنى الحكم ، وأخلاقية الحاكم قد أدى بهما إلى مذهبين مختلفين . ووجهتين متباينتين . وإن كانا قد ظلا عمريهما على حب وصفاء . فى حالتى السراء والضراء . . .

٨ ـ الحكم الذى ترضى حكومته

يلفت النظر فى حوادث سنة ١٢٣٦ هـ ـ سنة ١٨٢٠ م التى ذكرها الجبرتى فى الجزء الرابع من تاريخه، هذا الحادث الذى ندعه مرويًّا بعبارة صاحبه حيث يقول : (وفيه من الحوادث أن الشيخ إبراهيم الشهير بباشا المالكى بالإسكندرية قرر فى درس الفقه أن ذبيحة أهل الكتاب فى حكم الميتة لا يجوز أكلها. وما ورد من إطلاق الآية فإنه قبل أن يغيروا ويبدلوا فى كتبهم . فلما سمع فقهاء الثغر ذلك أنكروه واستغربوه . ثم تكلموا مع الشيخ إبراهيم المذكور وعارضوه . فقال : أنا لم أذكر ذلك بفهمى وعلمى ، وإنما تلقيت ذلك عن الشيخ على الميلى المغربى ، وهو رجل عالم متورع موثق بعلمه . ثم إنه أرسل إلى شيخه المذكور بمصر يعلمه بالواقع . فألف رسالة فى خصوص ذلك وأطنب فيها ؛ فذكر أقوال المشايخ والخلافات فى المذاهب . واعتمد قول الإمام الطرشوشى فى المنع وعدم الحل . وحشا الرسالة بالحط على علماء الوقت وحكامه ، وهى نحو الثلاثة عشر كراسة (كذا) ، وأرسلها إلى الشيخ إبراهيم ، فقرأها على أهل الثغر ، فكثر اللغط والإنكار ، خصوصاً وأهل الوقت أكثرهم مخالفون للملة . وانتهى الأمر إلى الباشا ، فكتب مرسوماً إلى كتخدا بيك بمصر ، وتقدم إليه بأن يجمع مشايخ الوقت لتحقيق المسألة ، وأرسل إليه بالرسالة أيضاً المصنفة . فأحضر كتخدا بيك المشايخ ، وعرض عليهم الأمر ، فلطف الشيخ محمد العروسى العبارة ، وقال : الشيخ على الميلى رجل من العلماء تلقى عن مشايخنا ومشايخهم ، لا ينكر علمه وفضله ، وهو منعزل عن خلطة الناس . إلا أنه حاد المزاج ، وبعقله بعض خلل ، والأولى أن نجتمع به ونتذاكر فى غير مجلسكم ، وننهى بعد ذلك الأمر إليكم . فاجتمعوا فى ثانى يوم ، وأرسلوا إلى الشيخ على يدعونه للمناظرة ، فأبى عن الحضور ، وأرسل الجواب مع شخصين من مجاورى المغاربة يقولان إنه لا يحضر مع الغوغاء ، بل يكون فى مجلس خاص يتناظر فيه مع الشيخ

محمد بن الأمير . بحضرة الشيخ حسن القويسنى ، والشيخ حسن العطار فقط ، لأن ابن الأمير يناقشه ويشن عليه الغارة! فلما قالا ذلك القول تغير ابن الأمير وأرعد وأبرق ، وتشاتم بعض من بالمجلس مع الرسل ، وعند ذلك أمروا بحبسهما فى بيت الأغا ، وأمروا الأغا بالذهاب إلى بيت الشيخ على وإحضاره بالمجلس ولو قهراً عنه . فركب الأغا وذهب إلى بيت المذكور ، فوجده قد تغيب ، فأخرج زوجته ومن معها من البيت ، وسمر البيت! فذهبت إلى بيت بعض الجيران! ثم كتبوا عرضاً محضراً وذكروا فيه بأن الشيخ على على خلاف الحق ، وأبى عن حضور مجلس العلماء والمناظرة معهم فى تحقيق المسألة ، وهرب واختفى لكونه على خلاف الحق! ولو كان على الحق ما اختفى ولا هرب . والرأى لحضرة الباشا فيه إذا ظهر ، كذلك فى الشيخ إبراهيم باشا السكندرى . وتمموا العرض وأمضوه بالختوم الكثيرة ، وأرسلوه إلى الباشا . وبعد أيام أطلقوا الشخصين من حبس الأغا ، ورفعوا الختم عن بيت الشيخ على ، ورجع أهله إليه . وحضر الباشا — يعنى محمدعلى — إلى مصر فى أوائل الشهر ، ورسم بنفى الشيخ إبراهيم باشا إلى بنى غازى . ولم يظهر الشيخ على من اختفائه . . .)

هذا الخبر الذى رواه الجبرتى يحمل دلالات كثيرة ، وقد يستنبط القارئ منه أشياء متنوعة تتصل بحرية الرأى ، ولغط العوام ، وخصومات العلماء ، وسطوة الحكام ، ورعاية الاعتبارات ، وتلطيف الفتن . . . ولكن الذى يهمنا منه هو رضا الشيخ على الميلى المتهم بأن يكون الشيخ حسن العطار أحد الحكمين فى هذه المسألة ، وثانى القاضيين فى مجلس المناظرة ، وأولهما الشيخ حسن القويسنى . فاختيار العالم المتهم لهذين الحكمين هو دليل على اطمئنانه إليهما ووثوقه من مناصرتهما للحق ، وعدم ميلهما إلى الهوى . وتلك شهادة من عالم محقق لعالمين يراهما — وهو فى موضع الاتهام — أهلاً للثقة ، وموضعاً للعدالة . وقد اختارهما صاحبنا ليخففا من حدة الشيخ الأمير فى المناقشة ، فكأنهما صمام الأمن الذى به يستطيع أن يناقش خصمه فى هدوء ، ويجادله فى اطمئنان . وقد حدثت هذه الحادثة والشيخان حسن العطار وحسن القويسنى ليسا إلا مجرد عالمين من علماء

الأزهر ، ولم يكن واحد منهما قد وصل إلى مشيخة الأزهر بعد . وفى هذا دلالة على المكانة العلمية وعلى الحيدة التى كان يتمتع بها هذان العالمان .

وليس فى هذا الاختيار من العالم المتهم دلالة على رأى العطار والقويسنى فى الحكم على ذبيحة أهل الكتاب . وهل هى جائز أكلها أم لا يجوز ؟ فقد يكون رأيهما مخالفاً لرأيه ، ولكنه دلنا على أن حسن العطار وحسن القويسنى أهل لأن يطمأن إليهما ، ويوثق بهما. وتلك شهادة تدلنا على مكانة الشيخ حسن العطار فى عصره ، ومنزلته من مخالفيه وموافقيه على السواء . . .

٩ ــ قارئ الكتب الواعى

لم يصل حسن العطار إلى تلك الحصيلة الواسعة من المعارف البشرية فى عصره إلا بما حصله من قراءة الكتب . فإن شيوخه وأساتذته فى الأزهر لم يعطوه من المعارف وثراء الفكر قدر ما أعطته الكتب الكثيرة التى قرأها وعلق عليها ، وأعاد قراءتها . فقد كان صاحبنا قارئاً ممتازاً ، وكان للكتب عنده محل عظيم من نفسه . وما عرف عنه أنه ضن على كتاب يقتنيه بمال مهما ارتفع سعره ، على الرغم من عدم تكاثر الأموال بين يديه . وتدلنا أخباره المنبثة هنا وهناك فى تضاعيف مصنفاته على مبلغ عنايته بالكتب التى يسمع بها . وشدة رغبته فى الحصول عليها . ففى الجزء الثانى من كتابه « جمع الجوامع » يسوقه الحديث إلى كتاب « توشيح التوشيح » ، فيقول عنه : (وهذا الكتاب من أجل كتب المصنف ، وقعت إلى نسخته وأنا بمدينة دمشق الشام ، ومقدمة ذلك الكتاب بخطه ، فاشتريتها . . .) [١]

وما كان العطار ليسافر دون أن يستصحب الأسفار والكتب فى أسفاره ورحلاته . ويذكرنا فى مقدمة حاشيته على شرح الأزهرية للشيخ خالد أنه لما خرج فاراً من مصر إلى البلاد الرومية ، كما سبق الحديث عن ذلك فى صفحة ٢١

(١) جمع الجوامع : لحسن العطار جـ ٢ ص ٣٠١ .

استصحب مسودة هذا الكتاب وغيرها من بعض كتبه . ولم يكن العطار يكتفى بقراءة الكتب التى تقع فى يده ، بل كثيراً ما كان يطرز هوامشها بتعليقاته وكتاباته . ويؤيد هذه الحقيقة ما ذكره عنه الشاعر الشيخ محمد شهاب الدين ، ونقله عنه على مبارك من أن الشيخ حسن العطار (كان آية فى حدة النظر وشدة الذكاء . ولقد كان يزورنا فى بعض الأحيان ، فيتناول الكتاب الدقيق الخط الذى تعسر قراءته فى وضح النهار ، فيقرأ فيه على نور السراج وهو فى موضعه . وربما استعار منى الكتاب فى مجلدين : فلا يلبث عنده إلا الأسبوع أو الأسبوعين ، ويعيده إلىّ ، وقد استوفى قراءته ، وكتب فى طرره على كثير من مواضعه)[١] . فهو لا يبالى أن يعلق على هوامش الكتاب وطرره حتى ولو كان مستعاراً وليس فى ملك يده . ويقرر لنا هذا الخبر سرعة حسن العطار فى القراءة مع الاستيعاب والفهم . فالكتاب الضخم فى مجلدين لا يأخذ منه أكثر من أسبوعين لقراءته واستيفاء موضوعاته والتعليق على هوامشه .

وتدلنا الرسالة التى بعث بها حسن العطار إلى الشيخ مصطفى بكرى الساعاتى [٢] من أدباء وقته على مبلغ اتساع دائرة قراءة الرجل وكثرة محفوظه من كتب الأدب والتاريخ والأخبار والمحاضرات وما إليها ، ففيها إشارات إلى أخبار أدبية طريفة تدل على أن الرجل كان مطلعاً على كثير من كتب الأدب والتاريخ والشعر .

ولم يكتف العطار بالكتب العربية ، بل اتجه إلى الكتب التى ترجمت فى أوائل عصر النهضة فى القرن التاسع عشر ، فقرأها ، وأفاد منها ، وجمع بها بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب . ويشهد له تلميذه الشيخ رفاعة الطهطاوى بهذا فيقول عنه : (وكان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها)[٣] . بل يتحدث العطار نفسه عن قراءاته واطلاعاته على الكتب فيقول : (وقع فى زمننا

---

(١) الخطط التوفيقية — ج ٤ ، ومعجم المطبوعات العربية لسركيس ص ١٣٣٦ .
(٢) مجلة روضة المدارس عدد ١٨ سنة ١٢٨٧ هـ ص ٢٥ ، وعدد ١٩ ص ٢٤ .
(٣) مباهج الألباب المصرية لرفاعة الطهطاوى .

أن جلبت كتب من بلاد الإفرنج . وترجمت باللغة التركية والعربية ، وفيها أعمال كثيرة ، وأفعال دقيقة ، اطلعنا على بعضها . وقد تتحول تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية من القوة إلى الفعل)[١] .

ويفسر لنا نهم العطار بالقراءة وتحصيل المعارف كلفه بالمعرفة وحبه الأصيل للعلم . ويؤكد لنا الأستاذ سامى بدراوى (أن مفتاح شخصية العطار يكمن فى هذا الحب للعلم) . كما يقرر (أن كلفه بالمعرفة والتعلم هو الذى جعله فذاً بين أقرانه تلميذاً وأستاذاً ، وهو الذى صاحبه فى كافة مراحل حياته ، وجعله حدثاً فى عصره)[٢] . والحق أن الشيخ حسن العطار كان حدثاً فى عصره ، وكان ظاهرة قليلة النظير ، بل نادرة المثيل .

١٠ – ثنائى مرح . . . وثلاثى متلازم . . .

تصادفنا فى سيرة الشيخ حسن العطار شخصيتان كبيرتان ربط الود بينهما وبينه بأوثق رباط ، وهما شخصية عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ ، وإسماعيل الخشاب الشاعر الخفيف الروح . ويروى لنا الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٣٠هـ – سنة ١٨١٥ م نبأ وفاة الشاعر الخشاب ، ويحدثنا عن هذه الصلة قائلاً : (وبعد أن رجع صاحبنا العلامة الشيخ حسن العطار من سياحته ، مازج المذكور – يعنى الشاعر الخشاب – وخالطه . ورافقه ووافقه ولازمه ، فكانا كثيراً ما يبيتان معاً ، ويقطعان الليل بأحاديث أرق من نسيم السحر ، وألطف من اتساق نظم الدرر . وكثيراً ما كانا يتنادمان بدارى ، لما بينى وبينهما من الصحبة الأكيدة ، والمودة العتيدة ، فكانا يرتاحان عندى ، ويطرحان التكلفات التى هى على النفس شديدة ، ويتمثلان بقول من قال :

( ) جمع الجوامع لحسن العطار جزء ٢ ص ٦٤١ .

(٢) مجلة المجلة عدد مارس سنة ١٩٦٥ . ص ٣٢ .

فىَّ انقباض ووحشة فإذا رأيت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسى على سجيتها وقلت ما قلت غير محتشم!

ثم يتجاذبان أطراف الكلام ، فيجولان فى كل من فن من الفنون الأدبية ، والتواريخ والمحاضرات ، فتارة يتشاكيان تغير الزمان ، وتكدر الإخوان ، وأخرى يترنمان بمحاسن الغزلان ، وما وقع لهما من صد وهجران ، ووصل وإحسان ! فكانت تجرى بينهما منادمات أرق من زهر الرياض ، وأفتك بالعقول من الحدق المراض ؛ وهما حينئذ فريدا وقتهما ، ووحيدا مصرهما ، لم يعززا فى ذلك الوقت بثالث ، إذ ليس ثم من يدانيهما فضلاً عن مساواتهما فى تلك الشئون التى أربت على المثانى والمثالث !) (١)

ولا نجد كلاماً أصدق فى وصف صحبة هذا الثالوث من كلام الجبرتى المؤرخ ولا أدق منه وألطف ! والواقع أن الجبرتى يتواضع هنا حين يذكر عن العطار والخشاب الشاعر أنهما لم يعززا بثالث فى زمانهما ؛ فقد كان الجبرتى نفسه ثالث هذه الجماعة المتلاقية على الحب والوفاء والألفة والسمر والأدب . وتدلنا شهادة مؤرخنا الجبرتى لحسن العطار على روح هذا العالم الأديب الذى كان يذوب رقة ولطفاً ، والذى كان يجارى الشاعر الخشاب فى غزلياته ومعابثاته ، ومفاكهاته ، بل فى مجونياته ! وقد أسقط الثلاثة الكلفة بينهم فى مجالسهم الخاص هذا ، وفى أسمارهم ومنادماتهم ومطارحاتهم .

والواقع أن الشاعر إسماعيل الخشاب كان أكثر الثلاثة ظرفاً ، وأميلهم إلى الدعابة فى انطلاق كثير . . . وكان فيه براعة فى اجتذاب قلوب مجالسيه ومحدثيه ، حتى لقد كان أمراء مصر وبكواتها وتجارها وعلماؤها يرتاحون لمنادمته ، ويتنقلون على طيب مفاكهته ، وحسن مخاطبته ، ولطف عبارته . وكان فيه كذلك قدرة عجيبة على استحضار المناسبة اللائقة بالمجلس ، وعلى مخاطبة الحضور على قدر عقولهم ؛ فيجانس الناس ويشاكلهم على قدر اختلاف أهوائهم . . .

(١) تاريخ الجبرتى – طبعة بولاق – ج ٤ ص ٢٣٩ .

ولقد بلغ من وفاء الشيخ حسن العطار لصديقه إسماعيل الخشاب الشاعر أنه هو الذى جمع شعره وأظهر ديوانه ، كما تشير إلى ذلك عبارة فى الصفحة الثانية من الديوان المطبوع بالجوائب[1] ، وكما يذكر الجبرتى فى ترجمته للخشاب .

وكثيراً ما كان هؤلاء الثلاثة يتنادون إلى الرياض ، ويتداعون إلى المتنزهات استجلاباً للأنس ، واطراحاً للهم . فنرى الخشاب الشاعر يدعو الجبرتى المؤرخ إلى متنزه ، قائلاً : —

يا سيدى يا سندى ويا عريق المحتد
ويا أخا منظـره جلاءُ عين الأرمد
أدعوك تأتى مسرعاً ويالذاك من يد ؟
نؤم قصراً جامعاً كل المعانى الشرد
نصغى إلى مزهر من أضحى فريد البلد !

وكثيراً ما كانت تقوم المعارضات الشعرية بين أعضاء هذا الثالوث الظريف. فحين نظم حسن العطار موشحته التى يقول فيها على طريقة الأندلسيين :

أما فؤادى فعنك ما انتقلا فلم تخيرت فى الهوى بدلا ؟ فاعجب
يا معرضا عن محبه الدنف ومغرماً بالجمال والصلف
ومن به زاد فى الهوى شغفى أما كفى يا ظلوم ما حصلا ؟
حتى جعلت الصدود والمللا مذهب !
فتش فؤادى فليس فيه سوى شخصك يأيها المليح ثوى
قد ضل قلبى لسكنه ، وغوى وهكذا من يحب معتدلا
لم يلق إلا تأسفاً وقلى مشرب ...

---

(١) ديوان الخشاب : طبع الجوائب ص ٢ من الديوان أو ٣٤٥ من المجموع الذى طبعه فارس الشدياق مشتملا على دواوين أخرى لابن الوردى وغيره .

حين نظم العطار هذه الموشحة التى منها هذه الأبيات عارضه الشاعر الخشاب بموشحة مطلعها :

يهتز كالغصن ماس معتدلا   أطلع بدراً عليه قد سدلا غيهب

ولا شك أن العطار كان له شعر كثير فى الغزل ، كما كان له ديوان — كما يذكر الجبرتى[1] . ولا نعلم الآن مصير هذا الديوان المخطوط وأين مكان وجوده ، ولكننا نعلم يقيناً أن حسن العطار ذكر فى رسالته إلى الشيخ مصطفى بكرى الساعاتى أنه ضاع منه بدمشق كراس من ديوان شعره[2] . ولعله — على جلال قدره فى العلم — تحرج من شعر غزله وشبابه فزعم أنه ضاع منه كراس فى دمشق .

ولقد كان الجبرتى المؤرخ أكثر الثلاثة جداً ، ولكن العطار لم ير فى مجالس الأدب والظرف والمنادمة من حرج ما دام الدين متبوعاً ، وعلم الشريعة مصوناً . أما الخشاب فكان أكثر الثلاثة ميلاً إلى الإسراف فى المضاحكات والمطارحات واصطياد اللذات .

ولما مات الخشاب الشاعر لم يجد حسن العطار فى الجبرتى من يسد مسده ، ويملأ فراغه : فبقى — كما يقول مؤرخنا — فريداً عمن يشاكله ويناشده ويتجارى معه ، فسكت عن الشعر والنثر الأدبى جملة ؛ وانقطع عن مجالس السمر والمنادمة ، وانصرف إلى تقرير العلوم الفقهية والنحو ، والتصنيف فى مقررات الأزهر ما بين حواش وشروح ومتون . . .

١١ — وصّاف الأوبئة

لقد كانت مصر ، بل كان الشرق العربى كله ، فى العصر الذى شهد مولد حسن العطار مباءة لكثير من الأوبئة ومنها الطاعون ، الذى لفت أنظار

---

(١) تاريخ الجبرتى : طبعة بولاق ج ٤ ص ٢٤١ .

(٢) روضة المدارس عدد ١٨ ص ٢٨ .

الرحالين الأجانب فتحدثوا عنه فى رحلاتهم : والذى كان يحصد الأرواح حصداً . وكان وباء الطاعون يتكرر حدوثه كل بضع سنوات كما لاحظ ذلك الرحالة ڤولنى . ولقد شهد حسن العطار فى حياته الطويلة بضعة من الطواعين : أولها الطاعون الذى حدث سنة ١٢٠٥ هـ — ١٧٩١ م . وأشار إليه الجبرتى فى خلال ترجمته للشيخ محمد مرتضى الزبيدى صاحب « تاج العروس » . وقد مات الزبيدى مطعوناً فى ذلك الوباء . وثانيها الطاعون الذى حدث سنة ١٢٠٦ هـ — سنة ١٧٩٢ وقد أشار إليه مؤرخنا فى خلال ترجمته للشيخ محمد الصبان النحوى المشهور . أما ثالث الطواعين التى شاهدها العطار فهو الذى حدث فى عهد الحملة الفرنسية سنة ١٨٠٠ ، وقد وقع بمصر والشام ، وكان أسوأ نتائجه وأشد فتكاته بالصعيد . وينقل لنا الجبرتى المؤرخ وصفاً لهذا الوباء من رسالة بعث بها حسن العطار إليه من الصعيد حينما كان فاراً من وجه الفرنسيين فى القاهرة . ولم يكتف الجبرتى بنقل هذه الرسالة الوصفية فى تاريخه المشهور ، بل نقلها كذلك فى كتابه الآخر « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » الذى ألفه بالمشاركة مع حسن العطار . وتصف لنا رسالة العطار هجوم البلاء ، وإغلاق الأسواق ، وندرة الأكفان ، وكثرة الموتان ، وعدم وجود المغسلين والمكفنين وحاملى النعوش . . . وانشغال الناس بتجهيز الموتى ، وتردد صيحات النائحين والباكين ، وتعطل بيوت الله من الأذان والمؤذنين ، وجفاف الضروع ، وتعطل الزروع ، وهبوب حصيد النبات بفعل الرياح لفقدان الحاصدين . . . ولا بأس هنا أن نذكر هذه الرسالة المؤثرة حيث قال مخاطباً صديقه الجبرتى : (ونعرفكم يا سيدى[1] أنه وقع فى قطر الصعيد طاعون لم يعهد ولم نسمع بمثله ، وخصوصاً ما وقع منه بأسيوط . وقد انتشر هذا البلاء فى جميع البلاد شرقاً وغرباً ، وشاهدنا منه العجائب فى أطواره وأحواله . وذلك أنه أباد معظم أهل البلاد . وكان أكثره فى الرجال ، سيما الشبان والعظماء وكل ذى منقبة وفضيلة ، وأغلقت الأسواق ، وعزت الأكفان ؛ وصار المعظم من الناس بين ميت ومشيع ومريض وعائد !

(١) تاريخ الجبرتى — طبعة لجنة البيان العربى — جـ ٥ ص ٢٤١ .

حتى إن الإنسان لا يدرى بموت صاحبه أو قريبه إلا بعد أيام . ويتعطل الميت فى بيته من أجل تجهيزه ، فلا يوجد النعش ولا المغسل ، ولا من يحمل الميت إلا بعد المشقة الشديدة ، وأن أكبر كبير إذا مات لا يكاد يمشى معه — أى يسير فى جنازته — ما زاد على عشرة أنفار تكترى ! وماتت العلماء والقراء والملتزمون والرؤساء وأرباب الحرف . ولقد مكثت شهراً بدون حلق رأسى لعدم الحلاق ! وكان مبدأ هذا الأمر من شعبان ، وأخذ فى الزيادة فى شهرى ذى القعدة والحجة ، حتى بلغ النهاية القصوى ، فكان يموت كل يوم من أسيوط خاصة زيادة على السمائة . وصار الإنسان إذا خرج من بيته لا يرى إلا جنازة أو مريضاً أو مشتغلا بتجهيز ميت ! ولا يسمع إلا نائحة أو باكية ! وتعطلت المساجد من الأذان والإمامة ، لموت أرباب الوظائف ، واشتغال من بقى منهم بالمشى أمام الجنائز والسبيح والسهر . وتعطل الزرع من الحصاد ، ونشف على وجه الأرض ، وأبادته الرياح لعدم وجدان من يحصده . وعلى التخمين أنه مات الثلثان من الناس ، هذا مع سعى العرب فى البلاد بالفساد والتخويف ، بسبب خلو البلاد من الناس والحكام . . . إلى أن قال : ولو شئت أن أشرح لك يا سيدى ما حصل من أمر الطاعون لملأت الصحف . . . .) ولقد لقى الفرنسيون من العنت فى مكافحة هذا الوباء — وخاصة بالقاهرة حيث جموع جيشهم ورجال حملتهم — ما لم يغفله مؤرخو عهد الحملة ، وخاصة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى . كما كانوا يستعدون منذ حطوا رحالهم بمصر لمنع انتشار الأوبئة واتخذوا من وسائل الحيطة ما يذكره مؤرخنا فى حوادث سنة ١٢١٣ هـ . ولقد أصدروا الأوامر والمنشورات مراراً (بعدم المخالطة مع النساء المشهورات ، لأنهن الواسطة الأولى لتشويش الطاعون . . .)[١] فلما بدأ ظهور الوباء سنة ١٨٠٠ (انزعج الفرنساوية من ذلك ، وجردوا مجالسهم من الفرش ، وكنسوها وغسلوها ، وشرعوا فى عمل كرنتيلات — أى حجر صحى — ومحافظات . . .)[٢] ثم زادوا فى وسائل المكافحة

---

(١) تاريخ الجبرتى — طبعة اللجنة جـ ٥ ص ٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٨ .

فأمروا بحرق الثياب التى على أجساد الموتى من الوباء ، وحصل بذلك للناس انزعاج عظيم . ومن غرائب الاتفاق أن مراد بك المملوك المصرى فى عهد الحملة قد مات بالوجه القبلى على أثر إصابته بالطاعون . على أن عين الوباء لم تغفل عن الفرنسيين المعتدين : فقد روى الجبرتى أنه كان يموت كل يوم من الفرنسيين المقيمين بالقلعة الثلاثون والأربعون[١] . ولم يدع مؤرخنا الفرصة تمر دون أن يصور لنا بقلمه الرشيق طريقة دفن الفرنسيين لموتاهم من الوباء[٢] .

ولقد وصف لنا حسن العطار الطاعون الرابع الذى حدث فى مدة حياته سنة ١٨٢٣ م ، وذلك فى نهاية باب التصورات من حاشيته المشهورة على شرح الخبيصى فى علم المنطق . وعهدنا بالعطار أنه يستطرد بذكر حوادث فى خلال موضوعات كتبه ومسائل مصنفاته . وهنا نراه يشير إلى ثلاث حوادث هائلة حدثت بمصر فى سنة ١٨٢٣ ، وهى المطر الشديد الذى هدم مواضع كثيرة وعطل الناس عن قضاء مصالحهم ، والحريق الذى حدث بمخازن البارود فى القلعة ، وأهلك خلقاً كثيراً ، وحيوانات وأمتعة ، وارتجت منه البلاد رجتين نتيجة لانفجار البارود . والطاعون الذى وصفه قائلا[٣] : (ثم جاء الطاعون ومات من أهل العلم جماعة ، ومرض البعض ، والبعض فر إلى بلاده ، وصار من بقى ما بين عائد مريض ومشيع جنازة ومشغول بخدمة من مرض عنده . والأفكار تكدرت ، والهموم تكاثرت ، والأوهام غلبت . وكان معنا فى ابتداء إقراء الكتاب — يعنى حاشيته فى المنطق — جماعة كثيرة من أذكياء الطلاب ، قلوا جداً ، وصارت أفكارهم لذلك الحادث غير قابلة للبحث فى غوامض المسائل المحتاجة لصفاء الفكر ، وعدم شغل البال . وفكرى أنا أيضاً كذلك ، لتمرض عيالى ، وخوفى على أحبابى ، وحزنى على من مات منهم ، وإشفاقى على المتمرضين . أسأل الله سبحانه اللطف لى ولهم وللمسلمين . . .) .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٧ .

(٣) حاشية العطار على شرح الخبيصى ص ١٣٨ .

وإذا كان العطار فى طاعون عهد الحملة قد وصف لنا الآثار المادية للوباء، وصورها لنا فى البيت والشارع والحقل ، والمقابر والجنازات والأسواق ، فإنه فى طاعون سنة ١٨٢٣ قد صور لنا الحالة النفسية له ولطلابه . من أثر التمرض والتمريض والخوف والقلق والحزن على الموتى والإشفاق على المتمرضين . . .

ويعد حسن العطار بوصفه لطاعون سنة ١٨٢٣ م المؤرخ الوحيد له ، فلم تشر إليه تقارير العلماء والمؤرخين الأجانب المعاصرين لمحمد على من أمثال البارون دى بوالكمت . وهود جسون ، ودوهاسيل ، وبورنج[١] . كما لم يشر إليه اللواء محمد مختار « باشا » صاحب « التوفيقات الإلهامية » فى حوادث سنة ١٨٢٣ ، بل اكتفى بالإشارة « للحريقة المهولة بالقلعة بمصر » فقد كانت « لشدتها وشهرتها تؤرخ بها العامة مواليدهم[٢] ووفياتهم . . . »

على أن العطار لم ينفرد وحده فى الأدب العربى بوصف الطاعون والوباء ، فقد سبقه إلى ذلك الشاعر الأديب عمر بن الوردى الذى ولد بالمعرة وتوفى بحلب سنة ٧٤٩ هـ ، فله رسالة فى وصف طاعون حدث فى عهده أسماها « رسالة النبا ، عن الوبا » ، وقد حلاها بالمحسنات البديعية المزدحمة على طريقته فى الكتابة ، ولكنه أبدع فى وصف الوباء وطريقة انتشاره ، وكثرة ضحاياه[٣] .

وإذا كان الله ينعم بالبلاء أحياناً ، فإن هذا القول ينطبق على طاعون عهد الحملة الفرنسية فى مدينة عكا . فقد كان حدوث الطاعون بها من الأسباب التى حملت بونابرت على ترك محاصرتها . فقد كان يموت كل يوم من رجال عسكره خمسون وستون عسكريا . ولا نستنتج نحن ذلك ، ولكنا نأخذه من كلام بونابرت نفسه الذى بعث به من عكا إلى الفرنسيين المقيمين بمصر . . :

---

(١) بناء دولة : للدكتور محمد فؤاد شكرى وزميليه ص ٥٩١ .

(٢) التوفيقات الإلهامية ص ٦٢٠ .

(٣) ديوان عمر بن الوردى — طبع الجوائب — ص ١٨٤ .

١٢ – العطار بين مادحيه وراثيه

يظهر تقدير الناس للمرء وهو حي بين ظهرانيهم بمدحهم له وثنائهم عليه . فإن ألسنة الخلق أقلام الحق كما يقولون . ويظهر تقديرهم له بعد وفاته برثائه والتفجع عليه والتعداد لمحاسنه ومآثره . ولن نجد تقدير الرجال فى الأدب العربى إلا بين هذين . ولقد كان الشعراء فى عهد العطار قلة غير مجودة ، ولهذا لم نظفر عندهم بمدائح كثيرة له . وقد يكون مدحه جماعة من النظامين لم تصل إلينا قصائدهم لاعتبارات ، منها أن نظمهم لم يطبع ، وأن دواوينهم لم تنشر . ولقد أشرنا فى باب سابق من هذا الكتاب إلى الصلة بين العطار والشاعر بطرس كرامة اللبنانى ومدح هذا له ببعض الشعر الذى نشره فى ديوانه « سجع الحمامة » . على أن هناك من تلاميذ العطار نبغ شاعر مشهور فى عصره هو محمد شهاب الدين الذى حاول أن يكون الشاعر الرسمى للدولة فى عهده ونجح فى هذا . وقد ظل هذا الشاعر الأديب وفيًّا لشيخه مدى حياته ، وعبر عن هذا الوفاء بمدحتين نشرا فى ديوانه المطبوع سنة ١٢٧٧ هـ . ومدحة شهاب الدين الأولى للعطار ميمية القافية ، وقد جرى فيها على طريقته التقليدية فى الشعر ، وافتتحها بالغزل محاكاة للقدماء . وتخلص من أبيات الغزل الطويل إلى صفة الممدوح قائلاً :

قلت ياذا العذول دعنى وجهلى ... حسبك البر بحر فيض العلوم
مركز الفضل من غدا كل قطر ... مستمدا من خطه المستقيم
شيخ كل الشيوخ مولى الموالى ... صفوة الأصفيا ، مزيل الهموم
«حسن» الذات والصفات جميعاً ... مغضب المبغضين ، مرضى الخصوم
هو «عطارنا» الذى من شذاه ... كان عطر الهدى ذكى الشميم !

ولاحظ هنا الصناعة اللفظية والحليات البديعية ومصطلحات العلوم والبديع فى قوله : البر ، والبحر ، والفيض . وقوله : مركز ، وقطر . وخط مستقيم وهى

مصطلحات الهندسة ، والمناسبة بين عطار ، وشذا التى هى فوح العطور . . .

أما مدحة الشهاب الثانية للعطار فقد نظمها حين تعصب عليه بعض الشيوخ لمسألة لم يذكرها لنا الشاعر الذى أطال فى القصيدة ، وافتتحها أيضاً بالغزل وخلص إلى مدح العطار قائلاً :

هو فى سماء العلم بدر كامل ... ما إن يصاب تمامه بسرار
هو فى المعارف صاحب الحال الذى ... يمتاز عند تنكر الأخبار
هو فى الزمان السعد والعز الذى ... تعتز مصر به على الأمصار

ولاحظ هنا أيضاً مصطلحات النحو فى قوله: المعارف ، وصاحب الحال ، وتنكر ، وأخبار . . .

وهناك شاعر مصرى مشهور فى عصره اسمه على الدرويش ، وقد أدرك العطار ومدحه حينما كان شيخاً للجامع الأزهر بقصيدة رائية مثبتة فى ديوانه[١] ، وقد جرى الناظم المادح هنا على طريقة أهل عصره فى الافتتاح بالغزل والتخلص إلى المدح ، وملأ مدحته بالمحسنات البديعية والصنعة المتكلفة ، وخلص إلى مدح ممدوحه قائلاً :

ورأى الأقاحى عطر ثغرك فانثنى ... متعجباً يثنى على «العطار»
يزهو على الأعصار عجباً عصره ... وتتيه مصر به على الأمصار

ولاحظ الشطر الأخير هنا فهو يكاد يكون بألفاظه الشطر الأخير من أبيات الشاعر شهاب الدين . على أن العطار الذى أقل الشعراء المادحون فى مدحه هو العطار الذى أقل الشعراء الراثون فى رثائه . حتى القصيدة الطويلة التى رثاه بها تلميذه الشاعر شهاب الدين ضاعت من ناظمها ! فأثبت فى ديوانه ستة أبيات فقط ممهداً لها بالعبارة التالية : (وكنت قد رثيت العلامة الشيخ العطار — قدس

(١) ديوان الأشعار بحميد الأشعار للشاعر على الدرويش ص ١٣٨ .

سره — بقصيدة ضاعت مسودتها ، وليس فى مخيلتى سوى أبيات قليلة مطلعها قولى :

سله أمنا فهو معطى الأمان ... رب أمر حال دون الأمانى
بينما الإنسان يرجو بعيداً ... إذ تدانى منه داعى التدانى
لم تزل آمالنا فى ازدياد ... مع أن العمر فى نقصان
والمنايا حكمها فى البرايا ... بالبلايا دائم الجريان
يا خليلى خلنى وشجونى ... إن ما بى من شجون كفانى !
كل شىء هالك جل ربى ... فتدبر من عليها فانى[1]

على أن العطار — رحمه الله — أسعد حظاً فى الرثاء من غيره من العلماء الأعلام الذين ماتوا ولم يرثهم أحد . فقد مات قبله بقليل العلامة المشهور السيد محمد مرتضى الزبيدى شارح القاموس المحيط (فلم يرثه أحد من الشعراء) كما يروى لنا الجبرتى فى تاريخه . . .

١٣ — العطار فى تقدير الرجال

لقد تناول كثير من مؤرخى الأدب وكتاب السير الشيخ حسن العطار بالحديث عنه أو الترجمة له أو التعريف به . وجاء الحديث عنه إما أصلاً فى صلب بحث أو مقال ، وإما عرضاً فى خلال كتاب . ولم يظهر عن العطار منذ انتقل إلى جوار ربه دراسة قائمة بذاتها فى كتاب مستقل خاص به . وبهذا كان كتابنا هذا أول كتاب مستقل يظهر فى المكتبة العربية عن الشيخ حسن العطار .

ومن الكتاب والباحثين الذين كتبوا عن العطار من اكتفوا بعرض طرف من سيرته ، أو نتف من أخباره دون إبداء رأى فيه ، أو تقدير له ولمكانته فى النهضة

---

(١) ديوان محمد شهاب الدين — ص ٣٢٩ .

الحديثة التي بدأت في القرن التاسع عشر . ومنهم من أضاف إلى الأخبار عنه رأياً فيه وتقويماً له . وسنعرض في هذا الفصل آراء الكتاب في الرجل منذ عصره حتى زماننا هذا . وأول من يصادفنا هنا المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي صديق العطار ورفيقه ، فقد قال في معرض ترجمته للشيخ محمد عرفة الدسوقي : (وقد رثاه أمثل من عنه أخذ ، وأكمل من له تتلمذ ، صاحبنا العلامة ، وصديقنا الفهامة ، المنفرد الآن بالعلوم الحكمية ، والمشار إليه في العلوم الأدبية ، صاحب الإنشاء البديع ، والنظم الذي هو كزهر الربيع ، الشيخ حسن العطار)[١] . ويقول عنه أحد تلاميذه الأديب المصري مصطفى بكري الساعاتي : (. . . العالم المفرد ، والعلم الأوحد ، رب الشعر والقريض ، والفنون التي هي كالروض الأريض ، ذو التآليف الشائقة ، والتحقيقات الفائقة ، أوحد الفضلاء . . . المتفنن في علوم لا يعرفها إلا أفراد قليلة ، الحائز قصب السبق في مضمار كل فضيلة ، شيخنا بل وشيخ كل من نظم ونثر ، وقرأ العلوم وحرر ،أبو السعادات حسن ابن محمد الشهير بالعطار)[٢] . ويقول عنه تلميذه رفاعة الطهطاوي : (كان له مشاركة في كثير من العلوم ، حتى في العلوم الجغرافية . . . وكان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية)[٣] . ويقول عنه على مبارك : (إنه اشتغل بغرائب الفنون والتقاط فوائدها) . أما مؤرخ الرجال للقرن الثالث عشر : الشيخ عبد الرزاق البيطار ، فيقول عنه : (ولقد انفرد في علم الأدب ، وأجاد فيما نظم ونثر ، وأحاطت به الفنون إحاطة الهالة بالقمر . . .)[٤] . ويقول عنه مؤرخ الصحافة العربية فيليب طرازي : (وقد خلف عدة تآليف في الأصول والنحو والبيان والمنطق والطب . . . وكان هذا الشيخ عالماً بالفلكيات ، وله في ذلك رسائل في كيفية العمل بالأسطرلاب والربعين المقنطر والمجيب والبسائط . وكان يحسن عمل المزاول الليلية

---

(١) الجبرتي جـ ٤ ص ٢٣٢ .

(٢) روضة المدارس — العدد ١٨ ص ٢٧ .

(٣) مباهج الألباب المصرية ص ٣٧٥ .

(٤) حلية البشر — جـ ١ ص ٤٨٩ .

والنهارية ، وقد اشتهر أيضاً الشيخ العطار بفنون الأدب والشعر . .)[١] . ويقول عنه الدكتور طه حسين وزملاؤه فى تأليف « المنتخب » : (. . وكان مع علمه كاتباً شاعراً بليغاً)[٢] . أما الأستاذ محب الدين الخطيب فيصفه بقوله : (وكان متضلعاً فى العلوم الرياضية ، فضلاً عن العلوم الشرعية والعربية)[٣] . ويتحدث عنه مؤرخنا عبد الرحمن الرافعى فى معرض ترجمته للشيخ رفاعة فيقول : (وكان الشيخ حسن العطار من علماء مصر الأعلام ، وامتاز بالتضلع فى الأدب وفنونه والتقدم فى العلوم العصرية ؛ وكان هذا نادراً بين علماء الأزهر)[٤] . ويصفه أستاذنا الشيخ أحمد الإسكندرى وزملاؤه فى تأليف « المفصل » بقولهم : (هو العالم الكاتب الشاعر ، أكب على كتب الأدب فأصاب منها حظًّا عظيما ، وأجاد الشعر والنثر كليهما)[٥] . ويصور الأديب خليل شيبوب تطلعات العطار واتساع أفقه بقوله : (وقد جاب الأقطار الشرقية ، وعاد إلى مصر وفى عينيه آفاق جديدة ؛ وفى فؤاده صور وعبر . فهو يحدث عن دمشق والقسطنطينية ، والجبال والصحراء ، والأودية والبحار ، ولكن نفسه لم تكن مستريحة إلى حال الخمول التى رأى عليها الشرق وأهله وخنوعهم إلى الحكام المستبدين ، وانصراف العلماء إلى المنفعة والمصلحة[٦] . . .) . ويصفه الدكتور عبد الحميد يونس بقوله : (وكان رجلاً شاعراً ناثراً مستنيراً اشتهر بغزارة علمه . . .)[٧] ، وينتقد الأستاذ عمر الدسوقى تكلفه وتعمده للسجع فى نثره ، ولكنه يجمل تقويمه بقوله : (على أن الشيخ العطار — مع هذا — من أحسن كتاب عصره وشعرائه ديباجة ، وأقلهم تكلفاً)[٨] . ويشيد المرحوم الأستاذ عبد المتعال الصعيدى

---

(١) تاريخ الصحافة العربية جـ ١ . ص ١٢٩ .

(٢) المنتخب — لطه حسين وزملائه جـ ٢ ص ٤٧٩ .

(٣) كتاب : الأزهر — لمحب الدين الخطيب — ص ٣٧ .

(٤) عصر محمد على ص ٤٧٢ .

(٥) المفصل لأحمد الأسكندرى ورفاقه جـ ٢ ص ٣٣٥ .

(٦) عبد الرحمن الجبرتى — سلسلة اقرأ — لخليل شيبوب ص ١٠٧ .

(٧) الأزهر — لعبد الحميد يونس وعثمان توفيق — ص ١٣٢ .

(٨) فى الأدب الحديث — لعمر الدسوقى — جـ ١ — ص ٤٨ .

بموقف العطار من الدعوة إلى العلوم العصرية فيقول : (ولا شك أن موقف الشيخ حسن العطار من العلوم الرياضية بشكلها الجديد يدل على ما كان يمتاز به من مرونة عقلية ودينية ، وعلى أنه كان فى هذا أحسن حالاً من أهل الأزهر الذين حاربوها بعده باسم الدين . . .)(١) ولكنه ينتقد موقف العطار الضعيف وصوته الخافت الذى لم يستطع الجهر به ، بل كان يرسله فى مواضع مخبوءة من أحد كتبه فى الفقه . أما الدكتور حسين فوزى النجار فيقدره بقوله : (وكان العطار جوّاب آفاق ، محبًّا للأسفار . فساح فى البلاد العربية ، وأقام فى بعضها زمناً ، وارتحل إلى تركيا ولبث بها حيناً ، فأفاده الترحال قدرة على التأمل ، كما أفاده اتصاله بعلماء الحملة الفرنسية معرفة بسر نهضتهم وقوتهم . . .) (٢) . ويلخص لنا الأديب الباحث سامى بدراوى رأيه فى العطار بقوله : (والخلاصة أن الشيخ حسن العطار كان له موقف متكامل من مشكلات مجتمعه الثقافية والتعليمية والأدبية والسياسية . وقد حاول أن يشخص هذا الواقع ويحدد جوانب الضعف فيه ، كما نادى بضرورة تغييره ورسم برنامج هذا التغيير . وأخيراً أنه عهد بأمانة هذا التغيير ومستقبله إلى تلاميذه الذين يعتبر رفاعة رافع الطهطاوى نموذجهم الفذ الذى بلغت حركة العطار على يديه أوجها)(٣) . ويوجز لنا المستشرق كراتشكوفسكى تقديره للعطار بقوله : (ولم يكن الشيخ حسن العطار عالماً فحسب ، بل وشاعراً أيضاً . .)(٤) . ويجمل لنا المستشرق فولرز رأيه فى العطار فى الفصل الذى كتبه فى دائرة المعارف الإسلامية ، مادة الأزهر ، فيقول : (وكان العطار رجلا مستنيراً ، اشتهر بعلمه ، وكان أيضاً شاعراً ناثراً)(٥) .

هذا هو حسن العطار فى تقدير جماعة من المؤرخين والعلماء والأدباء من

---

(١) تاريخ الإصلاح فى الأزهر ص ٢١ .

(٢) رفاعة الطهطاوى — سلسلة أعلام العرب — ص ٦٣ .

(٣) مجلة المجلة — عدد مارس سنة ٦٥ ص ٦٥ .

(٤) حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى — ص ٢٦ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية — المجلد الثانى — مادة أزهر ، ص ٦٥ .

أهل عصره ، ومن أهل زماننا . وسيمتد تقدير الرجل على مدى الزمان ، لأن تنبهه وتنبيهه إلى قيمة العلوم العصرية ، وإلى البعد عن الجمود قد آتى ثمرته ، وخاصة على يد تلميذه رفاعة الطهطاوى الذى كان رائد النهضة فى العصر الحديث .

الفصل الثالث

جوانب حسن العطار

١ – حسن العطار الشاعر

أجمع الذين ترجموا للعطار أو تناولوه بشيء من الدراسة والتعريف على أنه كان شاعراً . ولابد أن نضع الرجل فى مكانه الصحيح من شعر ذلك العصر الذى عاش فيه . فلو أننا قسناه بمعايير زماننا وما طرأ عليها من تجديد فى النظر إلى الشعر لظلمنا الرجل ظلماً بيناً . والحق أن العطار كان – كما لاحظ تلميذه الأديب الشيخ مصطفى بكرى الساعاتى – ينحو فى الشعر منحى أهل الأندلس فى قصائدهم ، ولم يحد عن طريقتهم التى بها تفوقوا وانفردوا عن سواهم[١] .

ولم يكن العطار فى جريه على طريقة الأندلسيين مخالفاً لأهل عصره والعصر الذى سبقه . فإننا نلاحظ أن شعراء القرن الحادى عشر الهجرى والثانى عشر الهجرى كانوا يعارضون شعراء الأندلس فى نظم الموشحات ، فالشاعر إسماعيل الطهورى المصرى الموسيقى الملحن والمتوفى سنة ١٢١٢ هـ عارض موشحة لسان الدين بن الخطيب[٢] . وقد سبقت الإشارة إلى موشحة العطار التى عارضها رفيقه الشاعر إسماعيل الخشاب بموشحة فى ديوانه . كما أن له بعض موشحات روى طرفاً منها فى كتابه حاشية العطار على الخبيصى ، صفحة ٢٥٧ .

ولم يكن العطار راضياً عن المستوى الذى هبط إليه الشعر العربى فى عصره ، فقد عاب عليه هبوطه إلى المدح الكاذب ؛ حتى ترفع الشعراء الحقيقيون عن نظم المدائح وتجافوا بأنفسهم عنها ، لما فى ذلك من انحطاط القدر . ولقد صور لنا هو بقلمه هذه الظاهرة بقوله من رسالته الجليلة إلى تلميذه الشيخ مصطفى

(١) مجلة روضة المدارس – عدد ١٨ ص ٣٦٩ .

(٢) تاريخ الجبرتى – طبعة لجنة البيان العربى ج ٤ ص ٢٧٥ .

بكرى : (. . ولما تعاطى الشعر بعض الخاملين . ليتوصل به إلى امتداح ما ليس حقيقاً بالمدح ، واستمناح ما استرشاح الماء من الصلد أهون ما يطلبه منه من المنح ، تسفل قدره . وانحط أمره ، وتجافى بنفسه عن نظم المديح ، كل ذى لب رجيح ، وطبع صحيح . لما رأى فى ذلك من الإزراء وانحطاط القدر ، وتحمل إثم الكذب . والوقوف مواقف الذل ، وترقب بارق خلب المواعيد ، والطمع فى استرشاح الصم الجلاميد . .)[١] .

ولقد كان فى حسن العطار رقة طبع ، وسلامة ذوق ، ورهافة حس ، فآثر شعر الغزل والنسيب والتشبيب . وعبر عن ذلك بقوله فى رسالته : (وأنا أرجو أن لا يكتب إلا ما لطف من النسيب ، وعذب من التشبيب) . وكان يضطر بعض الحين — بحكم الملابسات والظروف — إلى أن ينظم فى غير الغزل ، وبخاصة فى المدح — كمدحه لمحمد على — ولكنه يعترف لنا فى رسالته ، بل يقسم بالله بأن غير النسيب فى شعره لم يكن يخطر إلا قسرا ! (وإن أتيت بشىء منه فإنى معترف بأنى جئت شيئاً إمرا !)[٢] فكأنه كان مكرهاً على أن يركب من مراكب الشعر الصادق ما ليس من طبعه ؛ ويقول فى هذا : (مكره أخاك لا بطل) .

وإقلال العطار من شعر المديح إلا لضرورة قصوى — كالضرورة التى ألجأته إلى مدح محمد على — يدل على أصالة طبع هذا الرجل ، وصدق نفسه ، وترفعه عن طلب ما فى أيدى الناس ، وقد عبر لنا عن إعجابه بأبيات عمران ابن حطان التى قالها مخاطباً الفرزدق حين سمعه ينشد شعره فى المديح :

أيها المادح العباد ليعطى — إن لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم — وارج فضل المقسم العواد
لا تقل للجواد ما ليس فيه — وتسمى البخيل باسم الجواد

أما شعر الرثاء فما ركبه العطار إلا مجبراً بعد إلحاح من طالب لا يستطيع

---

(٣) مجلة روضة المدارس — عدد ١٩ — ص ٣٩٧ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٨ .

دفعه إلا بإجابته إليه ، كما قال فى رسالته لتلميذ مصطفى بكرى . على أنه فى بعض مراثيه المأثورة كان فيه براعة الالتفات إلى صفات المرثى ، حتى ولو كانت موضع نقد من الناس . فقد كان السيد أبو الأنوار السادات معروفاً بالتعاظم والتفاخر فى زمنه ، فلما مات نظم العطار فى رثائه قصيدة استهلها بالإشارة إلى ما كان عليه من التعاظم والتفاخر ، فقال فى الشطر الأول من مطلعها : سلام على الدنيا فقد ذهب الفخر[١] ! ومن مراثيه الصادقة قصيدته فى رثاء شيخه محمد عرفة الدسوقى التى يقول فيها :

أحاديث دهر قد ألمّ فأوجعا وحل بنادى جمعنا فتصدعا
لقد صال فينا البين أعظم صولة فلم يخل من وقع المصيبة موضعاً

ولم يهج العطار إلا مضطراً فى حالات نادرة ، ويصرح لنا هو بقوله : (وأما الهجاء فلم ينفق لى سوى أبيات وقعت عن سهو ، وقد لعبت بها — ولله الحمد — أيدى الإزالة والمحو)[٢]. وتراه هنا كالمعتذر عن هذا الهجاء ، ويحمد الله أن يد الإزالة قد محته . على أن الزمان الذى لا يضيع عنده شىء قد حفظ لنا بعض هجائه ، فهو يهجو شخصاً بقوله :

أنى لأكره فى الزمان ثلاثة ما إن لها فى عدها من زائد
قرب البخيل ، وجاهلا متفاضلا لا يستحى ، وتودداً من حاسد
ومن البلية والرزية أن ترى هذى الثلاثة جمعت فى واحد[٣] . . .

على أن موقف الفرنسيين من مصر والمصريين فى أثناء حملتهم الغادرة قد حمل العطار على هجائهم بقوله :

إن الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم فى مصرنا بين حمار ، وخمار !

---

(١) تاريخ الجبرتى — طبعة بولاق — جـ ٤ ص ١٩٥ .

(٢) روضة المدارس ص ٢٨ .

(٣) الخطط جـ ٤ ص ٣٩ ، وكتاب الأزهر بين الماضى والحاضر ص ٦٧ .

وعن قريب لهم فى الشام مهلكة   يضيع فيها لهم آجال أعمار ! (١)

وطبيعة الشاعر الرقيق الأصيل عند العطار قد حملته على أن يتأثر بالطبيعة فيصفها ، وهو وصف فيه من الصدق والتأثر ودقة الملحظ ما يدل على صفاء نفسه . ولا تزال تتردد فى سمع الزمان أبياته التى قالها فى وصف بركة الأزبكية ومنها قوله :

بالأزبكية طابت لى مسرات   ولذ لى من بديع العيش أوقات
حيث المياه بها والفلك سابحة   كأنها الزهر تحويها السموات (٢)

على أنه حين فر إلى أسيوط خوفاً من الفرنسيين لم يفته أن يصور هذه العاصمة الجميلة بقوله :

سقيا لأسيوط ذات الظل والشجر   ومربع اللهو واللذات والزهر
منازل بصنوف العيش عامرة   يلهو النديم بها فى مشتهى الوطر (٣)

وحين أقام العطار بدمشق أخذت بقلبه غوطتها ومحاسنها ومتنزهاتها ، فقال يصفها من قصيدة طائية :

بوادى دمشق الشام جز بى أخا البسط   وعرج على باب السلام ولا تخطى
عرائس أشجار إذا الريح هزها   تميل سكارى وهى تخطر فى مرط (٤)
كساها الحيا أثواب خطر فدثرت   بنور شعاع الشمس والزهر كالقرط

وقد نظم حسن العطار فى أغراض أخر ، فهو يهنئ فى بعض المناسبات ،

---

(١) الجبرتى — طبع لجنة البيان جـ ٥ ص ١٨ .
(٢) روضة المدارس عدد ١٩ ص ٦ وإنشاء عطار ص ٦١ ، ومصر فى القرن الثامن عشر ص ٥١ جـ ١ .
(٣) إنشاء العطار — ص ٥٨ .
(٤) الآداب العربية لشيخو جـ ١ ص ٥١ . والخطط التوفيقية جـ ٤ ، ومجلة المجلة عدد رقم ٩٩ .

كتهنئته لنقيب أشراف القدس بعودته إلى النقابة بعد أن أبعد عنها ، فيقول :

الحمد لله على فضله قد رجع الحق إلى أهله
وآض روض الفضل ذا بهجة من بعد ما أشفق من محله
قد يتساوى اثنان فى منصب وإنما التفريق فى سبله
ومفخر المرء بأفعاله لا بالذى قد مات من أهله[١]

وهو ينظم شعراً تاريخياً ينقش على قاعة الجلوس فى بيت الأمير المملوك محمد بك الألفى يقول فيه :

شموس التهانى قد أضاءت بقاعة محاسنها للعين تزداد بالألف
على بابها قال السرور مؤرخا سماء سعاداتى تجدد بالألفى[٢]

على أن أرق ما فى شعر حسن العطار هو غزله الذى يقول فى بعضه :

أعن المحب ثناك عنه وجيبه أم قد دعاك إلى البعاد رقيبه ؟
هجر الكرى لما هجرت ، وواصلته شجونه وازداد فيك نحيبه
لم يجن ذنباً فى هواك ، وإنما قد كان بالهجران منك نصيبه[٣] ...

ويقول فى بعضه الآخر :

إلى متى أشكو ولم ترث لى ؟ أما كفى أن رق لى عذلى ؟ !
يا باخلا بالوصل عن عاشق بعسجد الأجفان لم يبخل
أنفق فى حر الهوى عمره وعن أمانيه فلا تسأل !

على أنه فى بعض مدائحه الشعرية القليلة كان يفتتح بالغزل تخلصاً إلى

(١) الخطط التوفيقية ج ٤ .
(٢) تاريخ الجبرتى — طبعة بولاق — ج ٤ ص ٢٨ ، وطبعة لجنة البيان ج ٦ ص ٣٢١ .
(٣) إنشاء العطار ص ٥٤ .

المدح كما فعل فى مدحته لإبراهيم « باشا » .

وقد يبدو الغزل غريباً من عالم فقيه أصولى محقق كان شيخاً للأزهر ! ولكن ليس فى هذا غرابة من واقع الأحداث والتاريخ . فالشيخ عبد الله الشبراوى كان شيخاً للأزهر فى القرن الثانى عشر ، بل كان سادس شيوخه على ترتيبهم فى تولى المشيخة . ومع هذا له القصيدة الغزلية الرقيقة التى يتغنى بها فى عصرنا هذا من أرق الحناجر الملائكية ، ومطلعها :

بحقك أنت المنى والطلب ... وأنت المراد وأنت الأرب !

ولى فيك يا هاجرى صبوة ... تحير فى وصفها كل صب (١)

وكان بعض شيوخ الأزهر المترمتين يتغزل فى شعره ، كالعلامة الشيخ محمد الأمير — أستاذ العطار — الذى يقول

أيها السيد المدلل ضاعت ... فى الهوى ضيعتى ، وأنسيت نسكى

يالك الله ! لا تمل لسوائى ... وتحكم ولو بما فيه فتكى !

وانظر الحق فى علو غناه ... كل شىء يمحوه غير الشرك(٢) !

وكالعلامة النحوى الشهير الشيخ محمد الصبان الذى يقول :

وحق صبح المحيا مع دجى الشعر ... وجنة الخلد مع راح اللمى العطر

ومقلة بفنون السحر قد كحلت ... وقامة رشحتها خمرة الخفر

ما غير البعد عهدى فى الغرام ولا ... نسيت وداً مضى فى سالف العصر (٣)

كما كان يتغزل بعض الشيوخ المتظرفين ، كالشاعر محمد شهاب الدين تلميذ صاحبنا العطار ، الذى شحن ديوانه بهذا الفن من الشعر ! فالعطار!

---

(١) ديوان الشبراوى ص ٨ ، ٩ . وكتاب الأزهر بين الماضى والحاضر — ص ٦٥ .

(٢) تاريخ الجبرتى — طبع بولاق ج ٤ ص ٢٨٥ .

(٣) تاريخ الجبرتى — طبع لجنة البيان — ج ٤ ص ٢٠٧ .

لم يخرج عن نهج شيوخه الكبار فى الغزل والنسيب ، كما لم يخرج تلاميذه المشايخ عن نهجه فى الغزل ، وعلى رأسهم الشاعر شهاب الدين !

بقى أن نقول كلمة عن ديوان حسن العطار . ففى ديوان الخشاب إشارة إلى أن بقية موشحة العطار موجودة فى ديوانه[١] . والجبرتى يقول فى خلال ترجمته للشيخ شامل الطرابلسى إن قصيدة العطار فى مدحه التى مطلعها :

انهض فقد ولت جيوش الظلام   وأقبل الصبح سفير اللثام

مسطرة بديوانه [٢]. ويقول العطار عن نفسه : (ضاع منى بدمشق كراس من ديوان الشعر) [٣] . ويقول الأب لويس شيخو : (وله شعر رائق جمع فى ديوانه) . وينقل عنه فيليب طرازى هذه العبارة بنصها[٤] . وينقل هذا الكلام الأساتذة الزركلى ، وعمر رضا كحالة ، وعمر الدسوقى . ولكن الأستاذ المحقق أحمد الإسكندرى يقول فى المفصل : (ولم يجمع شعره فى ديوان خاص ..)[٥]. ونخلص نحن من هذه الأقوال التى تكاد تتعارض ، بأن ديوان العطار كان مجموعاً ، ولكنه ضاع بعضه فى حياته — كما يقول هو — وضاعت بقيته بعد وفاته .

على أن حديثنا عن العطار الشاعر لا ينسينا كلامه الدقيق الرقيق فى الشعر والوزن . فقد جرى على رأى القائلين بعدم اشتراط الوزن فى الشعر[٦] . كما أن كلامه فى التأثر بالشعر وتأثيره وحمارية طبع الذى لا يتأثر يدلنا على مبلغ إحساس هذا الشاعر وشاعريته . وحسبنا أن نحيل القارئ على كلامه فى هذا

---

(١) ديوان الخشاب ص ٣٤٥ .
(٢) الجبرتى — طبع اللجنة — جـ ٥ ص ١٤٦ .
(٣) مجلة روضة المدارس ص ٢٨ عدد ١٨ .
(٤) تاريخ الصحافة العربية جـ ١ ص ١٢٩ .
(٥) المفصل جـ ٢ ص ٣٣٥ .
(٦) العطار على الخبيصى ص ٢٥٧ .

الموضوع فى كتابه أو حاشيته على كتاب المنطق[١] .

ولن نغبّر سماء شاعرية العطار بمنظوماته فى العلوم ! وخاصة فى النحو فيكفى أن يرجع القارئ إليها فى حاشيته على شرح الشيخ خالد فى النحو ، وذلك ضرورى لمن يريد أن يتوسع فى جوانب النظم عند هذا الشاعر الرقيق[٢]

٢ - حسن العطار الناثر

يلفت حسن العطار نظرنا فى تطور أساليب التعبير بهذا الكتاب الذى ألفه وأسماه كتاب « الإنشاء » وجعل همه فيه أن يضع نماذج - من قلمه - من المخاطبات والرسائل الإخوانية ، والخطب ، والإجازات العلمية ، والكتابة الديوانية ، وشروط كتابة الوثائق والصكوك . فهو يضع دستوراً للكتابة فى عصره ويعززه بالنماذج الكثيرة التى وضعها بقلمه هو . وهى محاولة تدلنا على مبلغ اهتمام الرجل بتطوير وسائل التعبير وأساليب الكتابة فى عصره . كما تدلنا على أن الرجل أحس بأنه صاحب رسالة فى هذا السبيل . ولا شك أن انحدار الأساليب ، وانحطاط الكتابة فى أواخر القرن الثامن عشر حتى مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨م كان باعثاً للشيخ العطار على أن يجدد لها من الرسوم ، ويجدد لها من المعالم ما تغدو به متطورة مع العصر . ولا نزعم أن العطار كان مجدداً بالمعنى المعروف فى التجديد ، ولكنه كان شيخاً متنوراً أحس أن فى طريقة الكتابة فى زمانه ما يحتاج إلى تخطيط وترشيد . فوضع للمتأدبين وشداة الأدب نماذجه فى الإنشاء . على أن لا يقلدوها ويرددوها ، كما كان يقلد ويردد خطباء المساجد تلك الخطب المنبرية التى كانت مجموعة فى مصنفات ، كخطب ابن نباتة مثلاً ! لا ! لم يرد العطار محاكاة عمياء ؛ ولكنه وضع بين يدى الطالب ما يعينه على

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٨ .

(٢) تجد نماذج لهذا الشعر التعليمى فى صفحات ٦ - ٣٤ - ٥٨ - ٨٥ - ٦٣ - ٧٠ - ٧٥ - ٨٧ من حاشية العطار على الأزهرية .

تقويم عبارته ، وتحسين كتابته ، وإثرائها بالمثل الشرود ، والشعر المستشهد به ، والسجعة اللطيفة ، والفقر الظريفة ، حتى تكون ذخيرة للمتأدب يأخذ منها ما يريد حيث يريد .

وبالطبع لم يستطع العطار أن يخرج على رسوم عصره فى الكتابة والنثر ، من حيث استعمال السجع ، ومحسنات البديع ، والحلى اللفظية . فهو فى هذا نموذج لرجال العصر كله . إلا أنه تخفف كثيراً من هذه المحسنات والزخارف والأسجاع التى لم يكتب للنثر العربى الحديث التخلص منها إلا بعد أكثر من قرن كامل ، حيث ثار الشيخ محمد عبده ثورته المباركة عليها ، وتابعه الكتاب والمفكرون من بعده .

والحق أن العطار بحكم تنوره ، وصفاء ذهنيته ، وكثرة رحلاته وجولاته ، واتصاله بالفرنسيين ، واطلاعه على كتب الغربيين المترجمة ، استطاع أن يتحرر من كثير من الأصفاد التى كانت تكبل الأقلام فى ذلك الزمان . واستطاع أن يوازن باعتدال بين طرائق التعبير التى كانت سائدة فى ذلك الزمان ، واستطاع أن ينزل الكلام منازله رعاية لمقتضيات الأحوال . فتراه يسجع حين يكون السجع حلية فى الكلام ومزية لا يستغنى عنها ، ولا يحلو إلا بها . . . وتراه يترسل ترسلاً واضحاً شائقاً حين لا يكون هناك معدى عن إرسال الكلام . . . ويبدو ذلك جلياً فى استطراداته اللامعة الذكية التى كان يرسلها فى حواشيه وكتبه من حين إلى حين . فحين لاحظ على شيوخ الأزهر إعراضهم عن كتب المتقدمين ، أخذ يلومهم فى موطن من حاشيته المشهورة على «شرح جمع الجوامع» فى أصول الفقة قائلاً فى أسلوب مرسل دقيق : (إن من تأمل فى علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا — مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية — لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم والكتب التى ألفت فيها . حتى كتب المخالفين فى العقائد والفروع . وأعجب من ذلك تجاوزهم إلى النظر فى كتب غير أهل الإسلام من التوراة وغيرها من الكتب السماوية واليهودية والنصرانية . ثم هم — مع ذلك — ما أخلوا فى تثقيف ألسنتهم برقائق الأشعار ، ولطائف المحاضرات . ومن نظر فى ذلك ،

وفيما انتهى إليه الحال فى زمان وقعنا فيه . علم أنا منهم بمنزلة عامة أهل زمانهم . فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئاً من عندنا . وقد اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم ، نكررها طول العمر ، ولا تطمح نفوسنا إلى النظر فى غيرها : حتى كأن العلم فيها ! ...)[1].

ومن استطرادات العطار المرسلة فى غير سجع ولا تكلف قوله فى الحريق الذى حدث بالقلعة سنة ١٨٢٣ : (. . . والحريق الذى بالقلعة وبها أمكنة فيها بارود ، فهدم البارود معظمها ، وأهلك خلقاً كثيراً وحيوانات وأمتعة . وارتجت منه مصر مرتين ، مرة بعد المغرب ، والثانية فى أول الساعة الخامسة ؛ بل تحدث الناس بوصول هذه الرجة إلى القرى البعيدة . وعجز الناس عن إطفاء النيران تلك الليلة . ثم فى اليوم الثانى تكاثرت الدولة والناس وأخذوا فى إطفائها ، وقد استمرت ليلتين ويومين ، ولولا لطف الله وعنايته ورحمته بالأمة المحمدية لهلكت مصر برمتها وأهلها ، بل وتعدى ذلك إلى كثير من القرى ، كما أخبر بذلك أهل الخبرة)[2] .

ورسالة العطار التى وصف بها الطاعون فى الصعيد وبعث بها إلى الجبرتى المؤرخ هى نموذج آخر لهذا النثر المرسل الذى كان يرسله الرجل بلا تكلف ولا قيود[3] . والواقع أن الرجل كان يتحرر من السجع والمحسنات والزخرف فى رسائله الخاصة أو استطراداته فى كتبه . أما الرسائل التى وضعها فى كتابه (الإنشاء) على أنها نموذج للنثر ، فقد تعمد فيها السجع والحلية ، كما ذهب فى بعضها أحياناً مذهب التكلف . وتمثل رسالته التى جعلها (لكاتب بليغ) لوناً من صنعته البيانية فى أدب الرسائل . فقد جعلها نموذجاً لما يكتب إلى كاتب بليغ . كما جعل نماذج لما يكتب ويرسل إلى رجال القضاء وشيوخ الطرق ، والأمراء ، والقواد ، والولاة . ونسوق هنا بعض رسالته إلى « كاتب بليغ » ومنها نستخرج

(١) حاشية العطار على شرح جمع الجوامع — ج ٢ — ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٢) حاشية العطار على شرح الخبيصى — ص ١٣٨ .

(٣) انظر هذه الرسالة قبل هذا فى الفصل الذى عنوانه : وصاف الأوبئة .

قواعد طريقته فى الكتابة الإنشائية : (سلام عاطر الأردان ، تحمله الصبا سارية على الرند(١) والبان ، إلى مقام حضرة المخلص الوداد ، الذى هو عندى بمنزلة العين والفؤاد ، صاحب الأخلاق الحميدة ، حلية الزمان الذى حلّى بها معصمه وجيده ، الذى موصول إحسانه بكل فضل عائد ، كنز المعارف عقد درر الفوائد ، الذى إذا أجرى أقلامه فى ميدان الطروس . أودع فيها من لآلىء البيان ما يفعل بالنفوس ، فعل حميا الكؤوس ، من معان حيرت المعانى ، وفعلت بالألباب ما لا تفعله المثالث والمثانى . . .) . ولا نجد أصدق حكماً على أسلوب العطار مما قاله الأديب سامى بدراوى : (ويغلب على أسلوب العطار البساطة والسهولة والحرص على الفكرة ونقلها إلى القارئ . فالأسلوب عنده مجرد وسيلة للتعبير وليس غاية فى ذاته . ومع ذلك فهناك فى بعض كتابات الرجل السجع والمحسنات البديعية عموماً . ومن غريب الأمر أن ذلك يكثر حيث يقصد الرجل إلى الإنشاء الأدبى ، أو الكلام فى فلسفة الأدب ، ويقل فى مؤلفاته العلمية حيث يسهل أسلوبه ، ويسلس حتى ليوشك أن يكون معاصراً) (٢) .

وهذه النتيجة التى انتهى إليها هذا الأديب الذى اهتم بالعطار هى أقصى ما يمكن أن نصل إليه من نتائج صحيحة حول نثر العطار .

ولا يقال إن العطار كان ذا شخصية مزدوجة فى كتاباته ، فالرجل بسيط سهل فى تعبيره ، وهو مترسل قريب الأداء ، ولكنه جعل كتابه فى (الإنشاء) نموذجاً لعشاق الأسجاع والمحسنات ، حتى يكونوا من تعبيراتهم على أسلوب سواء .

٣ ــ الفلكيات وعالم الفلك

لقد جمع حسن العطار إلى شهرته فى العلوم الشرعية والشعر والكتابة شهرة فى الاشتغال بالعلوم الفلكية . ولم يكن مجرد مطلع عليها ، بل كان متمكناً

---

(١) الرند نبت طيب الرائحة ، والبان شجر معتدل القوام .

(٢) مجلة المجلة عدد ٩٩ .

منها ، متعمقاً فيها ، مشتغلاً بآلاتها ، عاملاً فيها . ويذكر لنا أحد مترجميه (أنه كان عالماً بالفلكيات ، له فى ذلك رسالة فى كيفية العمل بالأسطرلاب ؛ والربعين المقنطر والمجيب والبسائط ؛ وكان يحسن عمل المزاول الليلية والنهارية)(١).

ولم يكن الاشتغال بالفلك وعمل المزاول غريباً على مشايخ ذلك العصر . فالجبرتى المؤرخ يذكر لنا كيف كان والده الشيخ حسن الجبرتى متمكناً من علوم الفلك ، وكيف قصده الوالى العثمانى أحمد « باشا » كور بعد ما سمع عن علمه ليطالع عليه كتب الفلك والحساب ، وليشتغل عنده برسم المزاول والمنحرفات حتى أتقنها(٢) . كما يذكر لنا مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى فى وفيات سنة ١٢٠٣ هـ وفاة العالم الماهر الشيخ مصطفى الخياط الذى برع فى التقويم وحل الأزياج وتحويل السنين ومظنات الكسوف والخسوف ، واستخراج أوقاتها وساعاتها ودقائقها ، مع الضبط والتحرير وصحة الحدس ، وعدم الخطأ (وكان يستخرج فى كل عام دستور السنة من مقومات السيارة ، ومواقع التواريخ ؛ وتواقيع القبط والمواسم والأهاة ؛ ويعرب السنة الشمسية لنفع العامة ؛ وينقل منها نسخاً كثيرة يتناولها الخاص والعام ، يعملون منها الأهاة وأوائل الشهور العربية والقبطية والرومية والعبرانية والتواقيع والمواسم وتحاويل البروج وغير ذلك)(٣).

وكان العلماء فى ذلك العصر لا يكتفون بمطالعة مصنفات الفلك ، بل يذهبون خطوة أبعد فى التطبيق العملى . فقد كان للشيخ أبى عبد الله التاودى عالم المغرب ولدان أحضرهما معه إلى مصر ؛ ثم تركهما فترة من الزمن فى رعاية الشيخ حسن الجبرتى والد مؤرخنا ، وكانا رفيقين لعبد الرحمن المؤرخ ، ومعهم الشيخ أحمد السوسى ، وسالم القيروانى ، ويحدثنا المؤرخ عن ذكرياته معهم قائلاً : (فكنا نطالع معهما سوية ، ونسهر غالب الليل ، نراعى المطالع والمغارب ، وممرات الكواكب بالسطح حذاء خيط المساترة ، ونراجع الشيخ — يريد والده

---

(١) تاريخ الصحافة العربية — لفيليب طرازى — جـ ١ ص ١٢٩ .

(٢) الجبرتى — طبع اللجنة جـ ٢ ص ٨٤ .

(٣) المصدر نفسه جـ ٤ ص ١١٥ .

الجبرتى الكبير – فيما يشكل علينا فهمه ؛ وهو معنا فى ناحية أخرى . . .)[١].

وقد أتيح للشيخ حسن العطار أن يطلع على آلات الفلك والرصد عند الفرنسيين ؛ كما اطلع عليها صديقه وصفيه المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى . وإذا كان الجبرتى قد وصف لنا – بعد معاينة وخبرة – الآلات الفلكية عند الفرنسيس ، المتقنة الصنع ؛ وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب ، العالية الثمن ، المصنوعة من الصفر المموه ، والنظارات للنظر فى الكواكب وأرصادها ، ومعرفة مقاديرها وأجرامها ؛ وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظراتها[٢] – فإن حسن العطار أيضاً يذكر لنا فى مقامة له أنه اطلع عند الفرنسيين على كتب كثيرة فى العلوم الرياضية والأدبية ؛ كما اطلع على آلات فلكية وهندسية[٣] .

وإذا كان عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المشتغل بالفلك قد حزن وأسف أشد الأسف عندما ثار العامة بمصر على الفرنسيين وخاصة على المسيو (كفريلى) الذى كان يسكن فى بيت مصطفى كاشف طرا ، فنهبوا الدار ، وقتلوا بعض من بها من الفرنسيين . وكان مما نهب وحطم كثير من آلات الصناعة ، والنظارات الغريبة ، والآلات الفلكية والهندسية مما هو معدوم النظير ، وكل آلة من هذه الآلات لايعرف قيمتها إلا من يعرف صنعتها ومنفعتها – إذا كان الجبرتى قد أسف لذلك الحادث الذى كانت نتيجته تحطيم عدد من تلك الآلات الثمينة ، فلا شك أن العطار لم يكن أقل منه أسفاً ، لأنه كان أدرى بقيمة هذه الآلات ، وما تقدمه للعلم من منافع .

٤ – الاهتمام بالدراسات الأدبية

استطاع العطار أن يكتسب صفة الأديب بالإضافة إلى صفة العالم الفقيه . والحق أنه كان على تمكنه فى علوم الشريعة وأصول الفقه والتوحيد ذا ميول أدبية

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٥٠ .
(٣) المجلة عدد ٩٩ .

واضحة . فلم يكن فيه تزمت الشيوخ وتنطع الفقهاء ، وجمود علماء الشرع . بل كان شيخاً رحب الأفق ، لطيف الحس ، رقيق الذوق ، وكان له مجال واسع فى كتب الأدب والأسمار والمحاضرات والأشعار . ولم يكن يرى أن الأدب من علوم البطالة ، وموضوعات الفراغ . ولكنه رأى الأدب ضرورة لترقيق النفس ، وإرهاف الحس ، وسلامة الذوق ، وصحة الحكم . وهو بهذا أسبق الشيوخ الذين وجهوا الاهتمام بالأدب فى الأزهر وجهة جديدة . ولم يكن العصر حينذاك يسمح للعطار أن يجرؤ على تعديل برامج التعليم فى الأزهر وإدخال بعض المواد الحديثة ، فقد كان الخروج على المألوف حينذاك جريمة لا تغتفر . ولكن العطار استطاع برفق أن يدخل فن الكتابة فى دروسه بالأزهر : وفن الكتابة — كما يقول هو — يجرى من العلوم الأدبية مجرى الثمرة من الدوح [1] . وفتح بيته لرفاعة الطهطاوى ليتلقى عنه دروساً فى الأدب والتاريخ [2] والجغرافية .

وإذا كان العطار لم يعط فى الأزهر دروساً فى الأدب والشعر ، مخافة أن يصدم شعور قوم كانوا ينفرون من أمثال هذه الفنون التى كانوا يعدونها بدعة ، فإنه استطاع برفق ولباقة كذلك أن يوعز إلى تلميذه الشيخ محمد عياد الطنطاوى ، المدرس الشاب الحديث عهد بالتدريس فى الأزهر ، بأن يعطى دروساً فى الشرح والتعليق على كتب الشعر والأدب . ولعل العطار بهذا الإيحاء والإيعاز إلى تلميذه الطموح كان يجس نبض الشيوخ ، ويجس نبض المحافظين على وجه العموم . وبفضل هذا التوجيه الأدبى من الشيخ حسن العطار إلى تلميذه محمد عياد الطنطاوى استطاع الإصلاح فى الأزهر أن يسجل أول حركة فى الدراسات الأدبية والشعرية فى صحن الجامع الأزهر .

والواقع أن الأزهريين فوجئوا حين رأوا شيخاً شابًّا — هو عياد الطنطاوى — يترك التدريس فى كتب الحديث والفقه ، ويختار للتدريس ميداناً آخر لم يألفه الشيوخ ، وهو تدريس مقامات الحريرى ، وشرحها ، والتعليق عليها ، وقراءة

---

(١) الإنشاء — لحسن العطار — ص ٢ .

(٢) حلية الزمن : لصالح مجدى بك ص ٢٥ .

شرح الزوزنى للمعلقات[١] .

على أن هذه القراءات الأدبية الشعرية قد سبقتها دروس فى فن الإنشاء والكتابة كان يلقيها الشيخ حسن العطار نفسه على طلبته بالأزهر . وفى هذه الدروس بعد بهم الشيخ عن مسائل الفقه ومناقشاته واعتراضاته إلى حكايات وطرائف ومحاضرات ، ونوادر أدبية ، وشواهد شعرية ، ولطائف فقرات ، وما يتبع ذلك من كنايات وأمثال . وقد كان كثير من الطلاب يفرون من دروس الفقه الجامدة ، ودراسات الأصول الجافة إلى حلقات العطار التى كانت أشبه بالندوة الأدبية المتشعبة الأطراف .

ولقد فتح العطار عيون الأزهريين على ذخائر من التراث الأدبى عند العرب . ففى خلال بعض حواشيه ، حتى فى المنطق والنحو ، كان يهدى طلابه إلى مثل كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصبهانى وإلى ما فيه من روائع الشعر الذى يعد ميراث العرب الباقى. وتراه فى حاشيته على شرح الخبيصى يشيد بالشعر ثم يتطرق إلى التوصية بقراءة « الأغانى » قائلاً فى نص عبارته : (وشجعان العرب فى الحروب تتمثل بالأشعار ، وتلقى نفسها عند ذلك فى مهالك الأخطار ، فلا تبالى بمواقع السيوف ، ولا بوارق الحتوف ؛ وفى جميع ما ذكرناه حكايات ونوادر شحنت بها الكتب والدفاتر ؛ ومن أراد الاطلاع على غرائب هذا الباب فليطالع كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ، وهو كتاب جليل كبير يحتوى على عشرين مجلدة . . .)[٢].

أرأيت كيف انقطع عهد الناس بالأدب والشعر خلال ثلاثة قرون من الحكم التركى . وضاعت معرفتهم — حتى الشيوخ والعلماء منهم — بكتاب مثل كتاب الأغانى ؛ ثم يجىء الشيخ حسن العطار فينادى بأعلى صوته على هذا الكتاب وعلى أضرابه من كتب الأدب والشعر التى ترهف الإحساس ، وتلطف الشعور ؟ .

وحين كان الجبرتى المؤرخ وصديق العطار يرى الاشتغال بمسائل الفقه

---

(١) حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى — ص ٣١ .

(٢) حاشية العطار على شرح الخبيصى ص ٢٥٨ .

وعلوم الشرع أبقى ثواباً ، وأحسن مآباً ، كان العطار يرد عليه : ولماذا ؟ ما دام الدين مصوناً متبوعاً ؟

الحق أن العطار كان موجهاً إلى الدراسات الأدبية بإيحاءاته إلى تلميذه محمد عياد الطنطاوى المدرس بالأزهر أولاً ، وبدروسه فى الإنشاء والكتابة الأدبية ثانياً ، وبالروح العامة التى خلعها على مجالس الأدب فى أوائل القرن الماضى ثالثاً ، وهى روح أضفت عليه من صفات الشعر والأدب فوق ما أضفته عليه من صفات العلم والفقه . حتى ليعد أحد ثلاثة كانوا أشهر شعراء وقتهم فى أول القرن التاسع عشر ، وهم : السيد إسماعيل الخشاب ، وحسن العطار ، والسيد على الدرويش . ومن عجب أن هذا العالم الأزهرى الأصولى الفقيه لا يعد فى علماء ذلك العصر قدر ما يعد فى شعرائه وأدبائه .

إن مشيخة الأزهر لم تصنع من حسن العطار شيئاً غير العمل الرسمى الرتيب ، أما الشعر والأدب فقد صنعا من العطار كل شىء . . . كما صنع تلميذه الطنطاوى من الأدب حلقات جديدة فى الأزهر لم يكن له بها عهد من قبل . . . ويكفى العطار فضلاً أنه هو الذى وجه تلميذه رفاعة الطهطاوى إلى دراسة الأدب ، ففتح ذلك ذهنه إلى البحث والتفكير ، وأعده لرسالة القيام بالنهضة الحديثة التى تولاها رفاعة على أحسن الوجوه . . .

٥ ــ المنبه لحركة الإصلاح

لعل صوت حسن العطار هو أول الأصوات العربية التى انطلقت من داخل الأزهر منادية بتغيير كتبه وإصلاح برامجه وإدخال العلوم العصرية فيه . وقد سبقه إلى ذلك صوت مسلم غير عربى هو المرحوم أحمد « باشا » كور الوالى العثمانى بمصر ، الذى شعر بنقص التعليم فى الأزهر ، واهتمام أهله بتحصيل الفقه والمعقول وعلوم الوسائل كالنحو والصرف والمنطق ، ونبذهم لعلوم المقاصد ــ كالعلوم الرياضية ــ مع ضرورتها لتقدم الأمم وقوتها . ولا يلام أحمد « باشا »

كور على أنه اكتفى بإرسال هذه الملاحظة على علوم الأزهر ، ثم اكتفى آخر الأمر بالتقائه بالعالم الرياضى الفلكى الشيخ حسن الجبرتى يتذاكر معه علوم الرياضة والفلك ويتعلم معه عمليًّا صنع المزاول . . . فما كان ينتظر من مثل هذا الوالى التركى أن يفعل للأزهر أكثر من هذا ، وخصوصاً أن اهتماماته بالعلوم الرياضية كانت اهتمامات شخصية لم ترتفع إلى مستوى المصلحة العامة للمسلمين. ولا يلام كذلك الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر فى عهد ولاية أحمد « باشا » كور على مصر لإهماله أمر إصلاح الأزهر ونكوصه من إدخال بعض العلوم العصرية فيه ؛ فإن الجو لم يكن مهيأ فى ذلك الحين لإخراج فكرة الإصلاح إلى حيز التنفيذ .

وقد حدثت حادثة أحمد « باشا » مع شيخ الأزهر الشبراوى قبل مولد الشيخ حسن العطار بعشرين عاماً أو تزيد قليلاً . ولا شك أنها كانت تردد سيرتها بين جنبات الأزهر لما فيها من طرافة وغرابة . ولا شك أن العطار سمع بها وهو طالب بالأزهر أو وهو مدرس فيه . ولا شك أنها أثرت فى نفسه ، كما أثر فيها اتصاله بالفرنسيين واطلاعه على كتبهم ، وآلات معاملهم : وأجهزة أرصادهم . ومن هنا قامت فى نفسه المتحركة المتطلعة عوامل التنبه نحو إصلاح الأزهر ، بل إصلاح البلاد جملة . وما أصدق على مبارك وهو يتحدث عن حسن العطار قائلاً : (واتصل بناس من الفرنساوية ، فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم ؛ ويفيدهم اللغة العربية ؛ ويقول : إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ؛ ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها . . . ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة — يعنى الفرنسية — من المعارف والعلوم ، وكثرة كتبهم وتحريرها ، وتقريبها لطرق الاستفادة) . (١)

وما تحمل عبارة رائد من الإيمان والقوة والتطلع مثل ما تحمله عبارة حسن العطار التى يقول فيها « إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ؛ ويتجدد بها من

---

(١) الخطط التوفيقية — لعلى مبارك — جـ ٤ ص ٣٨ .

المعارف ما ليس فيها» . ولقد كان الرجل أشجع الشيوخ بل أشجع المصريين جميعاً حين نادى بهذه العبارة التى انتبه لها الوالى محمد على حين ألقت إليه الأقدار حكم البلاد . ولا شك أن محمد على كان يسير على ضوء هذه العبارة فيما أحدثه بمصر من نهضة تعليمية ، وفيما استحدثه من نظام البعثات التعليمية التى أوفدها إلى الخارج — وخاصة فرنسة — حتى يساعد أعضاؤها — حين إتمام دراستهم هناك — على (تغيير أحوال البلاد ، وتجديد المعارف التى ليست فيها) وفقاً لتوجيهات حسن العطار ورغباته فى إصلاح البلاد .

وإذا كان حسن العطار لم يوفق فى إصلاح الأزهر وبرامجه وخطط الدراسة فيه كما كان يريد ، فأنه قد رزق حظًّا كبيراً من التوفيق فى الدعوة إلى إصلاح التعليم بالبلاد كلها ؛ فالمدارس العالية الفنية التى أنشئت بمصر فى ذلك العهد — كالهندسة والطب والصيدلة والألسن — هى الاستجابة الحقيقية لدعوة حسن العطار وتطلعاته ومناداته بحتمية تغيير الأحوال فى البلاد . والكتب التى ترجمت بالمئات فى عصر محمد على هى الصدى المحقق لأمنية حسن العطار حين رأى كتب الفرنسيين فى الرياضة والعلوم والآداب . وإذا كان رفاعة الطهطاوى صاحب فضل كبير ويد طولى فى حركة ترجمة الكتب فى عصر محمد على ، فإنه بلا شك قد تأثر فى هذا بآراء شيخه العطار ، وسمع منه قوله : (ومن سمت به همته إلى الاطلاع على غرائب المؤلفات ، وعجائب المصنفات ، انكشفت له حقائق كثير من دقائق العلوم ، وتنزهت فكرته إن كانت سليمة فى رياض الفهوم) [١] .

والعلوم التى يقصدها العطار ليست علوم الشريعة وعلوم الأزهر التى فقد الرجل ثقته بها ، وإنما هى علوم الفرنسيين التى شاهدها هو والجبرتى وغيرهما من العلماء فى وقت الحملة الفرنسية . ثم واتته الفرصة بأن يؤكد لمحمد على ضرورة إرسال البعوث العلمية فى طلبها ، ولم يكتف بهذا بل أوصى الوالى محمد على بأن

---

(١) حاشية العطار على شرح جمع الجوامع — جـ ٤ ص ٤٦١ .

يعين لإمامة أعضاء البعثات فى باريس تلميذه وصفيه رفاعة الطهطاوى ، الذى عين ناظراً لمدرسة التاريخ والجغرافية التى أنشئت سنة ١٢٥٠ هـ ، فناظراً لمدرسة الألسن التى أنشئت بعد ذلك بعام واحد[١] .

ولابد هنا من الإشارة إلى أن مطامح حسن العطا نحو التقدم العلمى والإصلاح بمصر لم تكن تنبؤات كما يذكر أحد المؤرخين المعاصرين[٢] . وإنما كانت توجيهات وتنبيهات . وفرق كبير بين التنبؤ والتنبيه ، فإن التنبيه يدل على الإيجابية من صاحبه . ولم يقصر العطار عن أن يكون إيجابياً فى دعوته . فحين عجز عن تدريس كتب العلم الحديث فى الأزهر كان يختص نفراً من تلاميذه الأدنين ليقرأ لهم كتب التاريخ والجغرافية والأدب وهى محظورة فى الأزهر . ويؤكد لنا هذه الحقيقة مرة أخرى ما نصادفه فى كلام على مبارك عن رفاعة الطهطاوى حيث يقول : (وكان له — رحمه الله — منزلة خاصة عند الشيخ حسن العطا ، فكان يشترك معه فى الاطلاع على الكتب الغربية التى لم تتداولها أيدى علماء الأزهر)[٣] .

والذين ينسبون كثيراً من الفضل إلى محمد على بما استحدثه من نظام البعثات العلمية إلى أوربا على غير مثال سبق فى الحكومات الشرقية ، ويزعمون له العبقرية فى هذا الصنيع : ينسون فضل الشيخ حسن العطار فى توجيهه محمد على إلى هذا السبيل . فقد كان مقرباً منه ، وكان الوالى يثق فيه : ويطمئن إليه ، ولا شك أنه سمع منه كثيراً ترديده لنغمة تجديد المعارف وتغيير أحوال البلاد ، وقوة المعرفة الفرنسية وغزارتها ؛ فالتقط محمد على بذكائه هذه الفكرة وحورها بأن جعل الطلاب المصريين ينتقلون بجملتهم إلى ديار العلم بأوربا — وخاصة فرنسا — ليرتشفوا العلم من مناهله .

وإذا كانت الوثائق الرسمية تغفل دائماً فضل أصحاب الفضل من غير الحكام ،

---

(١) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ص ٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢١ .

(٣) الخطط التوفيقية جـ ١٣ ص ٥٤ .

وتحجبهم حتى تفسح المجال لظهور الولاة والحاكمين ، فإن دلائل الأحوال ، وشواهد الأقوال تدل على أن فضل الشيخ حسن العطار فى هذا السبيل لا يحجبه نكران ، ولا يطمسه نسيان . . .

٦ ـ منهج فى التأليف

يمتاز الشيخ حسن العطار بمنهج فى التأليف يبدو واضحاً فى كتبه الكثيرة التى كان أكثرها حواشى وشروحاً وتعليقات على كتب أزهرية مشهورة متداولة بين أيدى الطلاب . فمما تميز به الشيخ هذه الدقة فى التعريفات ، بل الدقة فى كل عبارة يقولها . ولعل هذه الدقة جاءته من عقليته المنطقية المنظمة التى ظهرت فى اهتماماته بشروحه على كتب المنطق وحواشيه عليها ، وخاصة حاشيته على شرح التهذيب : والتهذيب هو المختصر الذى ألفه العلامة سعد الدين التفتازانى فى المنطق . ففى حواشيه وتعليقاته الثمينة نراه واقفاً للمؤلفين الأصليين بالمرصاد ، يصحح أوهام عباراتهم ، ويحدد معانى ألفاظهم تحديداً دقيقاً . فإذا قال النحوى الشيخ خالد الأزهرى مثلاً أن (الألف) من الحلق ، عقب عليه العطار قائلاً إن هذا القول فيه تسمح ، لأن الألف من الجوف . . . وإذا قال الشيخ خالد إن اسم الفعل من أجزاء الكلام التى يتركب منها ، وهى الاسم ، والفعل ، والحرف ، استدرك عليه العطار موضحاً بأن اسم الفعل قد يكون ماضياً ، مثل هيهات بمعنى : بعد ، ومضارعاً ، مثل : أف بمعنى : أتوجع ، واسم فعل أمر : مثل : صه : بمعنى : اسكت (١) .

ويميل العطار فوق دقة التعريف إلى النظرة الموسوعية فى مصنفاته : أو إلى الشمول والإحاطة فى المسائل ، بدلاً من الاقتصار والاختصار . فإذا قال نحوى بأن التنوين أربعة أقسام : تنوين التمكين . وتنوين التنكير ، وتنوين المقابلة ، وتنوين العوض ـ عقب عليه العطار قائلاً بأن (أقسام التنوين عشرة ، ونحن

---

(١) حاشية العطار على شرح الأزهرية ١٤ — ١٥ .

نتمم لك البقية إجمالاً . . .) ثم يأخذ فى حصر بقية أقسام التنوين[١] .

وإذا ذكر أحد النحاة اسم (أحمد) على أنه علم ممنوع من الصرف لم يكتف الشيخ حسن العطار بهذا بل يزيد فى التعريف فيقول إن اسم أحمد لم يتسم به أحد قبل النبي صلى الله عليه وسلم : وأما « محمد » فقد تسمى به قبله جماعة قيل إن عددهم أربعة عشر . أو خمسة عشر[٢] . فهو هنا لا يحصر نفسه فى دائرة النحو والعلل النحوية ، بل ينطلق إلى معارف من التاريخ والأدب وغيرها .

ولا يقف العطار فى مصنفاته وحواشيه وشروحه عند حد التقرير والتفسير ، ولكنه يتجاوز ذلك إلى التعقيب على المؤلفين وتصويبه لهم . ففى المنطق إذا أهمل مؤلف مثلا لفظة « فقط » استدرك العطار عليه منادياً بضرورة إضافة هذه الكلمة حتى يكون مفهوم الجملة كلها أدق[٣] . . . وتراه يناقش العلماء فى نصوص عباراتهم بما يجعلها أقرب إلى الدقة التامة . كمناقشته لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٥ هـ فى شرحه لإيساغوجى فى المنطق[٤] . وهو فى حواشيه لا يسكت على الأخطاء النحوية واللغوية التى قد يقع فيها المصنفون سهواً أو لبعض الاعتبارات . فإذا قال شارح التهذيب فى المنطق بأن (القضايا الموجهة التى يبحث عنها وعن أحكامها من العكس والتناقض خمسة عشر . . .) وقف له حسن العطار بالمرصاد يعلق على صيغة العدد هنا قائلاً : (لا يخفى أن المعدود هنا مؤنث ، وهو « قضية » ، فكان يجب تجريد « خمسة » من التاء ، لأنها تجرى على خلاف القياس ، ويجب إلحاق التاء لعشر لأنها عند التركيب تجرى على القياس . . .)[٥] ثم يعود العطار فيلتمس تحليلاً لهذا الخطأ فى صيغة العدد قائلاً : (وقد يوجه إلحاق التاء بخمسة هنا ، بأن المعدود محذوف) .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٧ .

(٣) حاشية العطار على شرح التهذيب فى المنطق — ص ٨٦ .

(٤) المصدر نفسه ص ١١٢ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٦٤ .

وهو التماس يجد له العطار مستنداً من أقوال النحاة . . .

ويلفت النظر فى مؤلفات العطار ميله إلى الإطالة فى كثير من تعليقاته . وهو لا يرمى من هذه الإطالة إلا إلى توضيح المعنى فى ذهن قارئه . وقد يدرك هو نفسه أنه إطال ، وأنه ربما أسأم القارئ وأضجره ، فتراه يقدم من الأعذار والاعتذار ما يدل على رقة شعوره . كما فعل فى تعليقه على إحدى المقولات فى المنطق ، ولم الشوارد الكثيرة حولها . فاعتذر من ذلك قائلاً : (وقد نظمنا فى هذه المقولة الشوارد الكثيرة الفوائد. فلاتسأم من الإطالة ، ولا تتشك الملالة :)[١]

أما « الاستطراد » فهو ظاهرة تلفت النظر فى مصنفات العطار ، والواقع أن الرجل كان موسوعى الذهن ، متعدد جوانب الثقافة . فتراه يستطرد فى خلال الكلام من موضوع إلى موضوع ، ولكنه استطراد لا يمل قارئه ، بل قد يكون فيه فائدة ومتاع عظيمان . ولا نسوق هنا غير نموذج واحد من عشرات النماذج التى صادفتنا فى كتبه . فلما فرغ من التعقيب على باب « التصورات » فى المنطق ، وانتقل إلى باب « التصديقات » ختم البحث بسرد طائفة من الأخبار والحوادث التى وقعت بمصر . ولم يكن إتيانه بهذه الحوادث حشواً أو لغواً ، ولكنه رأى أن يمهد لنفسه العذر حين أسكتته الحوادث عن متابعة حواشيه وتقاريره على كتاب المنطق . فإنه بعد أن سرد أنباء المطر الشديد ، والحريق الهائل بالقلعة . والطاعون بمصر ، ختم الكلام بقوله : (واجتماع هذه الأسباب هو الذى أوجب لى الوقوف عند هذا القدر ، فإن انجلى هذا الحادث ، وكان فى العمر بقية ، شرعنا فى القسم الثانى مستمدين الإعانة من الله ، وإن كنا من الذاهبين مع هذا الوفد : فعسى أن يأتى بعدنا من يوفقه الله للإتمام . . .)[٢] .

وقد تنبه لمثل هذا الاستطراد المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى وهو يكشف عن استطراد العطار فى بعض المواضع من حاشيته على (شرح جمع

---

(١) المصدر نفسه ص ١٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٨ .

الجوامع) إلى لوم أهل الأزهر على إعراضهم عن كتب المتقدمين[١] . وإلى مدح كتب الفرنسيين والأجانب المترجمة إلى اللغة العربية[٢] .

ويمتاز حسن العطار فى تأليفه بالتحقيق ومقابلة النسخ الخطية من الكتاب الواحد ؛ وهو منهج سليم فى التأليف ، فقد رجع بعض العلماء المناطقة إلى نسخ من كتاب عبد الحكيم السيالكوتى[٣] فى المنطق ، وهو حاشيته على شرح القطب الرازى على الشمسية ، ونقلوا بعض عباراتها محرفة مما ترتب عليه خطأ فى فهمهم . ولكن العطار فطن إلى هذا الاضطراب فى النسخ ، ويحمد الله على أن وفقه إلى الحصول على نسخة خطية صحيحة جداً ، وندعه هنا يقول بنص عبارته : (.. وأصل نسخ عبد الحكيم كلها محرفة ، فنقلها — يعنى بعض العلماء — بما فيها من التحريف والتصحيف . وقد منّ الله على الفقير بنسخة من عبد الحكيم صحيحة جداً ، قدم بها رجل فاضل من بخارى ، فصححنا عليها نسخة مصرية ، وعليها اعتمدت فى النقل . . .)[٤]

ومن مقابلات العطار الذكية لنسخ المخطوطات ما لاحظه على بعض نسخ « التهذيب » للعلامة التفتازانى من وجود نقص فى بعضها ، وزيادة فى بعضها الآخر . فحين جاء « الخبيصى » ليشرح التهذيب لم يتناول الموضوع الناقص لأنه بالطبع — ليس فى نسخته — فلاحظ الشيخ حسن العطار هذا ، واستنتج أن النسخة التى وقعت للشارح ليست من النسخ التى ألحق بها المؤلف الأصلى بعض الزيادات والإضافات ، كما رجح الاحتمال بأن تكون هذه الزيادات ليست من عمل المؤلف الأصلى : التفتازانى ، ولكنها (من إلحاق البعض)[٥].

---

(١) تاريخ الإصلاح فى الأزهر — لعبد المتعال الصعيدى ص ١٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠ .

(٣) هو عبد الحكيم بن شمس الدين الهندى البنجابى من علماء المسلمين فى القرن الحادى عشر الهجرى . اشتغل بالمنطق ، والبلاغة والعقائد ، وله حاشية على تفسير البيضاوى . توفى سنة ١٠٦٧ هـ .

(٤) حاشية العطار على شرح الخبيصى — ص ١٢١ — ١٢٢ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٤٥ .

وفى سبيل التحقيق وتوثيق المخطوطات والمقابلة بين النسخ ومعارضة بعضها ببعض كان العطار لا يضن بمال ولا جهد . فمن أجل حاشيته فى المنطق اضطر إلى الاطلاع على مخطوطات ثمينة تتصل بالموضوع ، فحصل — مثلاً — على نسخة خطية من كتاب [١] « شرح سلم العلوم » ، والسلم كتاب فى المنطق لمحب الله البهارى المتوفى سنة ١١١٩ هـ . وممن شرح سلمه العلامة الهندى اللكنوى عبد العلى محمد بن نظام الدين المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ .

٧ — الإجازات العلمية وتقاريظ الكتب

عقدنا فى كتابنا عن « المقرى صاحب نفح الطيب » فصلاً — نظنه مفيداً — عن الإجازات العلمية وطريقة منحها من العلماء ، يرجع إليه من شاء من القراء . وقد ظلت الإجازات من الشيوخ إلى تلاميذهم جارية إلى عصر الشيخ حسن العطار ، بل بعد عصره بعشرات من السنين . ولا نزال نذكر الإجازة التى كتبها الشيخ محمد الأشمونى لتلميذه الشيخ حفنى ناصف سنة ١٣١٦ هـ — سنة ١٨٩٨ م [٢] ولما كانت الإجازات تحتاج — من وجهة نظر الكتابة الفنية — إلى مراسم وقواعد وأصول لكتابتها والتفنن فيها ، فقد رأى حسن العطار أن يصنع نموذجاً منها فى كتابه « الإنشاء » [٣] حتى ينسج العلماء والأساتذة على منواله حين يمنحون الإجازات لتلاميذهم !

على أن العطار فى كتابه « الإنشاء » قد سجل بعض إجازاته الواقعية — لا النموذجية — التى كتبها لبعض طلبته . كإجازته إلى سيدى العربى الدمناتى كاتب سلطان المغرب ، الذى كتب إلى شيخه العطار يستدعيه ، أو يطلب منه

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٢ .

(٢) ترى صورة من هذه الإجازة فى كتاب « الشيخ الحسين بن أحمد المرصفى » — للمرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد — صفحة ٣٦ .

(٣) إنشاء عطار ص ٥٣ .

أن يمنحه إجازة ، ففعل ! ونسجل هنا — من باب التاريخ — كتاب الاستدعاء الذى بعثه الدمناتى المغربى إلى الشيخ حسن العطار ، وفيه يقول : (يا رب الذكاء الرائع ، وحامل العلوم التى سد بها الذرائع ، والمطيل بلسانه فى حفظ علوم الشرائع ، المستولى على المعرفة والفقه والفرائض ، ومذلل جناح الأصول إذا لم يذللها رائض ، وأستاذ العربية والحساب ، وخائض بحر المنطق الذى اكتسب به الإدراك أى اكتساب ، ملاك الأوطار ، أبا على السيد حسن بن محمد العطار ، نداء مستجيز ، بالاستدعاء الوجيز . ذا فضلكم وما خولكم الله من إحسان ، لا يفى به قلم ولا لسان . . .)(١) . وقد استجاب العطار لاستدعاء الرجل بالإجازة . ولم يكتف بأن تكون إجازة نثرية ، بل توجها بقصيدة من الشعر يقول فيها :

طلبت إجازة منى ... وإنى ⠀⠀ لحافى الرجل فى هذه المفازه
ومالى إن منعتكها اقتدار ! ⠀⠀ ومالى إن منحتكها إجازة !
وكيف أجوز فى ميدان قوم ⠀⠀ حقيقة فضلهم أرجو مجازه؟

وقد حفظ لنا مؤرخ القرن الثالث عشر الهجرى الشيخ عبد الرزاق البيطار صورة الإجازة التى كتبها الشيخ حسن العطار لوالده الشيخ حسن البيطار حينما كان المترجم له نازلاً بدمشق بعد رحلة إلى بلاد تركية وألبانيا ، وتعد هذه الإجازة وثيقة تاريخية هامة . ومصدراً من مصادر الترجمة للعطار ، لاشتمالها على أسماء شيوخ العطار أولاً ، ولاحتوائها على أسماء مؤلفاته التى كانت له حتى سنة ١٨١٥ م ، وهو العام الذى عاد فيه إلى مصر بعد رحلاته الطويلة ، وغيبته المتصلة .

وتدلنا استجابة العطار السريعة لكل من طلب منه إجازة علمية على روح هذا الرجل فى تشجيع الطلاب على طلب العلم وإقبالهم عليه . فإنه بهذا الصنيع

---

(١) الإنشاء — لحسن العطار ص ٦٢ .

يحبب التلاميذ فى الاستزادة من العلم ، ولا يصدهم عن قصد موارده .

وهذا التشجيع بالإجازات يناصره تشجيع آخر من العطار بتقريظه للكتب . وإذا كان تقريظ الكتب — بل تقريظ القصائد — « تقليعة » العصر فى العصر التركى كله ، بل كان بدعة من بدعه العجيبة ، فإن الشيخ حسن العطار لم يغال فيه إلى الحد المرذول المستثقل . وقد حفظ لنا فى كتابه فى « الإنشاء » نصوص ثلاثة تقاريظ ، أولها على كتاب ألفه شيخ الإسلام التركى عطاء الله أفندى يرد به عقائد قوم مبطلين ، وثانيها تقريظه على ترجمة ألفية ابن مالك بالتركية التى قام بها خيرت أفندى رئيس الكتاب فى دار السلطنة العثمانية فى عصره ، وثالثها تقريظه (على مؤلف لبعض الموالى الكرام ، ألفه فى غلطات الأنام ، وهو حفيد أفندى . . .)[1]

وليس لهذه التقريظات قيمة أدبية ، فقد انتهى عهدها ، وبطلت بدعتها . ولم تكن فى الحق أكثر من مجاملة بين الأدباء والعلماء ، ولم يقصد بها أن تكون ذات قيمة نقدية للعلم والأدب . والحق أيضاً أن العطار لم يسرف فيها ولا فى استعمالها ، وإن كان تلميذه الشاعر محمد شهاب الدين قد غالى فى استعمالها شعراً مغالاة عظيمة ، حتى لقد جعل قسما كبيراً من ديوانه[2] لهذه التقاريظ التى يعد بها أكبر المقرظين . ومن تقريظات الشاعر شهاب الدين تقريظه لكتاب « القاموس المحيط » حين تم طبعه بالقاهرة سنة ١٢٧٢ هـ .

ويذكرنا تقريظ الشهاب لطبع القاموس بتقريظ الشيخ محمد سعيد السويدى البغدادى لشرح القاموس المحيط للعلامة مرتضى الزبيدى سنة ١٢٩٤ هـ .

ولن نطيل الحديث عن هذه التقاريظ النثرية والشعرية التى لن يعدم القارئ الاطلاع عليها فى مواضع متفرقة من تاريخ الجبرتى ، أو فى دواوين شعراء ذلك العصر ، أو فى كتاب « الآثار الفكرية » الذى أفرد فيه جامعه : أمين فكرى « باشا » باباً خاصًّا للتقاريظ النثرية التى كتبها والده الأديب الشاعر الناثر عبد الله

---

(١) المصدر نفسه صفحات ٥٨ ، ٦١ ، ٦٦ .

(٢) انظر ديوان شهاب الدين .

« باشا » فكرى . ولكن الذى نستطيع أن نقوله بحق إن الشيخ حسن العطار لم يسرف فى هذه التقاريظ ، بل التزم فيها حد الاعتدال والقصد ، ولعله رآها كما كانت فى عهده وسيلة للمجاملة وتقارض الثناء بين العلماء والأدباء ، فلم يلجأ إليها إلا بمقدار . . .

٨ — آثار العطار ومؤلفاته

لا نجد أوثق من الشخص المترجم نفسه ، حين يعدد لنا بنفسه وبقلمه آثاره ومصنفاته . فإنه هو المصدر الذى لا يتطرق إليه شك . ولكن عيب هذه الطريقة أن المترجم له قد يكون سجل مؤلفاته قبل نهاية أجله بزمن طويل أو قصير . وهنا يكون سجل مؤلفاته ناقصاً بقدر ما كتبه بعد ذلك من كتب ومصنفات ، كما نجد ذلك عند العلامة المؤرخ السيوطى حين سجل فى كتابه : « حسن المحاضرة » ثبتا بأسماء كتبه التى ألفها ، وهو يترجم لنفسه ترجمة ذاتية — أو شخصية [١] — فقد كتب الترجمة وسجل مصنفاته قبل وفاته بفترة صنف فيها كتباً جديدة خلا منها ذلك الثبت المهم .

والذى حدث عند السيوطى فى القرن العاشر الهجرى ، حدث عند حسن العطار فى القرن الثانى عشر . فإنه فى إجازته التى كتبها للشيخ حسن البيطار ختمها بذكر مصنفاته التى كانت إلى ذلك التاريخ الذى كتب الإجازة فيه وهو سنة ١٨١٥ م . فسقطت بالطبع الكتب التى ألفها بعد ذلك . ويذكر لنا العطار أسماء مؤلفاته على هذا النحو :

١ — حاشية شرح قواعد الإعراب .

٢ — حاشية الأزهرية ، فى النحو

٣ — حاشية العصام على الوضعية للإيجى

---

(١) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة — للسيوطى — ج ١ ص ١٨٨ .

٤ — حاشية شرح إيساغوجى لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى فى المنطق
٥ — حاشية النخبة
٦ — حاشية السمرقندية لأبى القاسم السمرقندى فى الاستعارة
٧ — حاشية السلم لمحب الله البهارى من علماء القرن الثانى عشر الهجرى
٨ — حاشيتان على ولدية المرعشى فى آداب البحث
٩ — شرح المنظومة الوضعية
١٠ — شرح المنظومة التى فى آداب البحث
١١ — شرح منظومة التشريح
١٢ — شرح نزهة الشيخ داود فى الطب
١٣ — حاشية شرح أشكال التأسيس فى علم الهندسة
١٤ — حاشية المغنى فى النحو . وكان وهو بدمشق يدعو الله أن يتمها

ويختم حسن العطار هذا الثبت بقوله : (ولنا رسائل عديدة فى مسائل متفرقة من علم الحكمة والكلام وغير ذلك)[١].

أما الكتب التى ذكرها على مبارك فى خلال ترجمته للعطار ، فلم يذكرها على سبيل الحصر ، بل قال إن له تآليف عديدة منها (١) حاشيته على جمع الجوامع فى نحو مجلدين (٢) وحاشية على الأزهرية فى النحو (٣) وحاشية على مقولات الشيخ السجاعى (٤) وحاشية على السمرقندية فى البلاغة . ورسالة فى كيفية العمل بالأسطرلاب والربعين المقنطر والمجيب والبسائط ؛ ورسائل فى الرمل والزايرجة والطب والتشريح وغير ذلك .

وذكر له المرحوم أحمد تيمور فى « فهرس الخزانة التيمورية » تسعة من الكتب لا تزيد . وليس فيها من زائد على ما عند البيطار وعلى مبارك إلا هذه الكتب : (١) رسالة فى البسملة والحمدلة (٢) إنشاء الشيخ العطار (٣) حاشية العطار على كتاب التذهيب للخبيصى فى علم المنطق (٤) حاشية العطار على

(١) حلية البشر : لعبد الرزاق البيطار — جـ ١ ص ٤٩٢ .

جمع الجوامع فى أصول الفقه لتاج الدين السبكى (٥) منظومة العطار فى النحو. وواضح أن هذه الكتب الخمسة هى مما ألفه الشيخ حسن العطار بعد عودته من رحلته إلى مصر سنة ١٨١٥.

وذكر له جرجى زيدان ستة من الكتب هى: (١) إنشاء العطار (٢) منظومة فى النحو (٣) ديوان ابن سهل الأندلسى (٤) حاشية على شرح الأزهرية (٥) حاشية على السمرقندية فى البلاغة (٦) مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، وهو للجبرتى بالأصالة، وفيه بعض الشعر والنثر للعطار بالمشاركة. وليس فى الكتب التى ذكرها جرجى زيدان زيادة على ما سبق ذكره عند البيطار وعلى مبارك وتيمور إلا ديوان ابن سهل ومظهر التقديس.

.. ولم يرد فى ثبت مؤلفات العطار عند هؤلاء المحققين ذكر لديوان العطار الذى يقول عنه الجبرتى إنه موجود، وإن قصيدة: انهض فقد ولت جيوش الظلام، مسطورة به. وقد فصلنا الكلام عن ديوان العطار قبل هذا فى الفصل الخاص بالعطار الشاعر، فلن نعيد القول بالتكرار فيه.

ولا بأس أن نقول هنا كلمة عن كتاب «مظهر التقديس» الذى سجله جرجى زيدان فى مؤلفات العطار، ثم صحح الموقف على التو، فقال (إنه للجبرتى على ما يظهر وفيه جانب من منظوم العطار ومنثوره) [١]. فالأستاذ خليل شيبوب يصحح الوضع على طريقته بقوله: (ولا شك أن هذين البيتين من نظم الشيخ حسن العطار الذى ضمن هذا الكتاب فصولاً من إنشائه المسجوع، وخاصة تعليقه على قصيدة الصيرفى التى مدح بها أحمد «باشا» الجزار، وهى ثمانون بيتاً أو تزيد، أدرجها بحروفها ونقدها لغوياً وعروضياً) [٢].

والأستاذ محمود الشرقاوى يخلص من مقابلته بين مظهر التقديس وما كتبه المؤرخ الجبرتى فى تاريخه المسمى «عجائب الآثار»، عن دخول الفرنسيين مصر وإقامتهم فيها، وخروجهم منها، بالنتائج السليمة الآتية، وهى أن الجبرتى

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ — ص ٢٣٢.

(٢) عبد الرحمن الجبرتى — لخليل شيبوب — سلسلة اقرأ، ص ٨٨.

فى « مظهر التقديس » (يذكر اسم الشيخ حسن العطار على أنه شريك فى تأليف الكتاب ، فهو يقول فى أوله : إنه ألف كتابه وضم إليه ما كتبه الشيخ حسن العطار من النثر والشعر . ثم يقول عند اختياره اسم الكتاب : « وسميناه » مظهر التقديس . وهو عند ما ذكر ذلك عن تاريخه قال « سميته » عجائب الآثار . وعند ما يورد بعض الشعر يقول : إنه « لصاحبنا الآتى ذكره » أو « لصاحبنا السابق ذكره » بعد أن ذكر اسم الشيخ العطار) [1].

والحق أن هذه الملاحظات الذكية والنتائج الواعية جديرة بالاعتبار ، لأنها تصحح الرأى فى كتاب « مظهر التقديس » على أوضح الوجوه .

---

(١) مصر فى القرن الثامن عشر : لمحمود الشرقاوى — جـ ١ — ص ٣٦ .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار حسن العطار

١ ـ حسن العطار الشاعر

ا ـ الغزل :

رسالة عاشق لمعشوق

نظم الشاعر حسن العطار الأبيات التالية ، وعنونها بعنوان : رسالة عاشق لمعشوق ، ونشرها فى كتابه (الإنشاء) :

أَعَنِ المحبِّ ثناكَ عنه وجيبُه ... أم قد دعاك إلى البعاد رقيبُه ؟ (١)
هَجَرَ الكرى لما هجرتَ وواصلتْ ... ه شجونُه ، وازداد فيك نحيبه (٢)
لم يجْن ذَنباً فى هواك وإنما ... قد كان بالهِجران منك نصيبه
أفقرتَهُ من حسن وصلك بَعْدما ... جادت عليك دموعه ونسيبه
وتركتَه والفكر فيك مع النها ... ر سميرُهُ والسهْد منك منيبُهُ
لو للقِّا عَطفَتْه منك شكايةٌ ... رقَّت ، وَدَمع طافحٌ (٣) شُؤبوبه
لرأيتَ جسماً كالهلال من الضَّنَى ... ولهيبَ قلب مقلتاه تُذيبه
صِلْه لتستَبقى به الرَّمق الذى ... لولا الأمانى ما بقى موهوبه (٤)

---

(١) ثناك عنه : صرفك عنه . والوجيب خفقان القلب واضطرابه .
(٢) الكرى النوم : والنحيب رفع الصوت بالبكاء .
(٣) عطفته أى أمالته نحوك . والشؤبوب الدفعة من المطر ، وقد شبه به الدمع لغزارته .
(٤) صله أى أعد وصله والقرب منه ولا تقطع مودته . والرمق بقية الحياة .

أَلْزَمتُ نفسى الصبرَ فيك تأَسِّياً   والصبرُ أَصعَبُ ما يُقَاد نَجيبه (١)
وبليتُ فيك بكلِّ لاحٍ لو تَبدَّ   ى نحو طَوْدٍ أثقلته كُروبُهُ (٢)
أَفَلاَ رَثَيتَ لعاشقٍ لعبتْ به   أيدى المنوى ونازعته خُطوبُه ! (٣)
أنت النعيم له ومن عجب تعَذِّ   به ، وتُمرضُه ، وأنت طبيبه !

إلى متى

ولحسن العطار هذه الأبيات الغزلية التى أودعها أيضاً رسالة عاشق إلى معشوق ، ونشرها فى كتابه (الإنشاء) :

إلى متى تشكو ولم تَرْثِ لى   أما كفى أن رقَّ لى عُذَّلى (٤) ؟
يا باخلاً بالوصل عن عاشق   بعسَجَد الأَجفان لم يَبْخَل (٥) !
أنفَقَ فى حَرِّ الهوى عمره   وَعَن أمانيه فلاَ تسأَلِ !
لم يَبْقَ فى الصَّبِّ سوَى مهجةٍ   أمْست لنيران الهوى تَصطلى (٦)
ومقلة تَرعَى نجومَ الدُّجى   شقيقك الزاهر عنها سلى (٧) !
تَبيتُ تبكى شَجْوَها كلَّما   هاجَ بذكراكَ فؤادٌ بلى

---

(١) التأسى هو التسلى بالصبر .

(٢) بليت فيك أى أصبت فى حبى إياك . واللاحى هو اللائم على الشىء . والطود الجبل العظيم أى أصبت فى حبى لك بكل عذول لائم ثقيل كالجبل . . .

(٣) المنون الموت . .

(٤) ترثى لى أى تبكى وتشفق على . والعذل جمع عاذل وهو اللائم فى الحب .

(٥) العسجد الذهب ، وعسجد الأجفان كناية عن الدمع .

(٦) الصب هو العاشق ذو الولع الشديد ، والمهجة القلب .

(٧) المقلة العين . وترعى أى تنظر ، والدجى الظلام . وشقيق المحبوب الزاهر هو القمر ، فكأنه شبهه بالبدر . وسل فعل أمر بمعنى اسأل .

ما أَطْولَ اللَّيلَ على عاشقٍ   فَارقَ محبوباً عليه ولى
كَأنَّما الصبح اتَّقى سَطْوةً   من كافرِ الليل فلم يَنْجلى (١)

سلطان الهوى

وحين عاد إبراهيم « باشا » منتصراً من حروبه فى الشام مدحه الشاعر بقصيدة ، استهلها بالغزل التقليدى على طريقة قدامى الشعراء ، ثم تخلص من الغزل إلى المدح بعد ذلك . وفيها يقول :

سمهرىٌّ ينثنى أم غُصنُ بانْ   أم قَوامٌ دونه صَبْرِىَ بانْ ؟ (٢)
صان بالعسَّال معسولَ اللَّمَى   وتهادَى هادماً ما أنا بانْ (٣)
يا مليكَ الحسن رِفقاً بِشَجٍ   كلما حَاول كَتْمَ الشَّجوِ بانْ (٤)
مَرَج البحرين فيضاً دمْعُه   إذ رأى جفنيه لا يلتقيان (٥)
جَاءَ ، لما جارَ سلطانُ الهوى   طالباً من عادل القدِّ الأَمان (٦)
رُبَّ ساقٍ ، وهو قاسٍ قلبُه   عِطفُه منذ أدار الكأس لان (٧)

---

(١) اتّقى أى خاف ، والسطوة هى الصولة والاعتداء . والليل الكافر هو الذى يستر كل شىء ، لأن الكفر أصل معناها الستر والحجب . ومعنى البيت أن الصباح كأنه خشى اعتداء وصولة من الليل الكافر فلم يطلع . . .

(٢) السمهرى الرمح الصلب ويشبه به المحبوب . وغصن البان هو غصن شجر يشبه به القوام الدقيق المرتفع . وبان الصبر أى بعد وراح .

(٣) العسال الرمح . واللمى سمرة فى الشفة مستحسنة . وما أنا بان أى ما أنا بانيه .

(٤) الشجى هو الشخص الحزين . والشجو الحزن . وبان فى هذا البيت بمعنى ظهر .

(٥) مرج البحرين أى خلط ماءهما .

(٦) القد القوام ، وعادل القد هو الحبيب الذى يتغزل فيه .

(٧) عطف الرجل : جانبه . ولان عطفه كناية عن الرقة والاستجابة . ولاحظ البديع هنا ، فإن لفظة (ساق) حين تقلبها تكون (قاس) .

أهيفٌ إنْ ماس تِيهاً وَرَنا رُحْتُ منه بَيْنَ سيفٍ وسنان(١)
كَسَرَ القلبَ ، وما كانَ التقى فيه ، من حينِ هواهُ ، سا كنان(٢)

أنا راض

وللعطار بيتان فى الغزل يعلن فيهما عن نزوله على حكم الحبيب ورضاه منه بكل ما يرضاه ، وهما :

أنا راضٍ منك ياكلَّ المُنى بالذى تَهْوَى على حُكم الغرام
لستُ أبغى من زمانى حاجةً غيرَ أنْ تحيا سعيداً ، والسلام

ب — الوصف :

بركة الأزبكية

كانت الأزبكية فى عهد حسن العطار قبيل مجىء الفرنسيين إلى مصر مسكن الأمراء ، وموطن الكبراء ، وحى الرؤساء . تملؤها القصور الشاهقة ، وتحيط بها البساتين الوارفة الظلال . وقد وصفها الشاعر بهذه الأبيات : —

بالأزبكيَّة طابتْ لى مَسَرَّات وَلَذَّ لى من بديعِ العَيش أوقاتُ
حيثُ المياه بها والفُلْكُ سابحةٌ كأنها الزُّهر تحويها السموات(٣)

---

(١) الأهيف الرقيق الخصر . وماس أى تمايل ، وتيها أى عجباً واختيالا . ورنا أى نظر ، والسيف هنا كناية عن جفون المحبوب ، والسنان كناية عن قوامه الذى يشبه الرمح .

(٢) لاحظ البديع فى هذا البيت ، فكلمة ساكنان لها معنى قريب وهو المعنى المعروف فى النحو . ومعنى بعيد ، وهو الساكن بمعنى المقيم فى القلب .

(٣) الفلك السفن وكل ما يمخر البحر ، وهو جمع لا واحد له من لفظه ، والزهر جمع أزهر ، وهو النجم اللامع .

مدّتْ عليها الروابى خُضْرَ سُندسها ... وغرَّدتْ فى نواحيها حَمَامات ! (١)

والماءُ حينَ سرى رَطْبُ النَّسيم به ... وَحلَّ فيه من الأدوح زَهرات (٢)

كسابغات د روع ٍ فوقها نُقَطٌ ... من فضة ،واحمرارا ورد طْعنات (٣)

وللنَّديم بها عَيْشٌ تُساعِدُهُ ... على اغتنام دواعيه المسرَّات (٤)

يَروح منها صَريعَ العقلِ حين يرى ... على محاسنها دارتْ زُجاجات (٥)

وللرفاق بها جَمْعٌ ومفتَرقٌ ... لمَّا غَدَتْ وهى للندمان حانات (٦)

سقياً لأسيوط

لما فر العطار من القاهرة إلى الصعيد نجاة بنفسه من أذى الفرنسين المعتدين ، نزل بمدينة أسيوط ، فأحبها ، و وصفها نثراً وشعراً . ومن شعره المرتجل فيها هذان البيتان :

سَقْياً لأسيوطَ ذات الظل والشجرِ ... وَمَربع ِاللَّهو واللذات والزهَرِ (٧)

منازلٌ بصنوف العَيشِ عامرةٌ ... يلهو النديم بها فى مشتهَى الوَطَر (٨)

(١) الروابى جمع رابية وهى الأرض المرتفعة ، والسندس وشى أخضر يشبه به النبات والعشب الأخضر على وجه الأرض .

(٢) الأدواح الشجر العظيم جمع دوحة .

(٣) الدروع السابغة هى الدروع الواسعة المفاضة . ولقد شبه الشاعر هنا تموج الماء فى بركة الأزبكية بالتموجات التى على سطح الدروع ، وشبه أوراق الورد الحمراء المتناثرة على وجه البركة بالطعنات فى الصدور التى تقيها الدروع . . .

(٤) اغتنام المسرات ، انتهاز أوقات السرور

(٥) صريع العقل أى مسلوب العقل .

(٦) الرفاق جمع رفيق وهم الصحاب . والندمان جماعات الشاربين. والحانات جمع حانة وهى ما يقدم فيها الشراب ويجتمع الشاربون .

(٧) سقيا لأسيوط . يدعو الشاعر هنا لأسيوط أن يسقيها الله بالمطر .

(٨) الوطر هو ما يطلبه الإنسان من رغبات .

عرائس دمشق

نزل العطار بدمشق بعد جولته فى تركيا وألبانيا ، وقد نظم فى وصفها هذه الأبيات التالية الطائية . وقد اختار لها هذه القافية الصعبة الغليظة لأنه عارض بها قصيدة فى الغرض نفسه للشيخ محمد المسيرى الذى قدمها من بيروت فوصفها ولكن أبياته لم تقع من الأدباء موقع القبول ، فأراد العطار أن يعارضها بأبياته الآتية :

بوادى دمشقَ الشامِ جُزْ بى أخا البَسْطِ   وعَرِّجْ على باب السَّلام ولا تُخطى (١)
ولا تَبكِ ما يَبكى امروُّ القيسِ حَوْملاً   ولا منزلا أودى بمنعرج السِّقطِ (٢)
فإنَّ على باب السلام من البَها   ملابسَ حسنٍ قد حفَظْنَ من العطِّ (٣)
هنالكَ تَلْقَى ما يَروقُك مَنْظرا   ويُسْلى من الأَخْدانِ والصحبِ والرَّهطِ (٤)
عرائس أشجار إذا الريح هزَّها   تميل سكارَى وهى تَخْطِرُ فى مِرطِ (٥)
كساها الحيا أثوابَ خِطْرٍ فُدثِّرتْ   بنور شُعاعِ الشَّمس والزهر كالقُرطِ (٦)

---

(١) عرج أى مل نحو باب السلام وهو من أبواب دمشق القديمة . لا تخطى أى لا تخطئ إصابة غرضك .

(٢) حومل والسقط مكانان وقف عليهما الشاعر الجاهلى امرؤ القيس وبكى أطلالها بعد رحيل أحبابه عنها فى قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومـل

(٣) العط هو شق الثياب أو تشققها .

(٤) الأخدان جمع خدن وهو الصاحب . والرهط الجماعة من الناس أو الجماعة من قوم الرجل وأهله .

(٥) تخطر أى تميل ، والمرط الثوب غير المخيط .

(٦) الحيا المطر والخطر الغصن من الشجر . ودثرت أى تلفعت بدثار . والقرط ما يوضع فى الأذن لتتحلى به المرأة (الحلق) .

جـ ـ الرثاء :

دمعة على عالم

كان الشيخ محمد عرفة الدسوقى المالكى أستاذاً للشيخ حسن العطار فى الأزهر ، وكان من كبار المحققين والمؤلفين فى وقته . فلما مات سنة ١٢٣٠ هـ سنة ١٨١٥ م رثاه تلميذه الوفى بالقصيدة التى نذكر منها الأبيات التالية :

أَحاديثُ دَهر قد أَلمَّ فأَوجَعا وحَلَّ بنادى جمعنا فتصدَّعا(١)
لقد صَالَ فينا البَين أَعظمَ صولةٍ فلم يُخْلِ من وقْعِ المصيبة موضعاً(٢)
وجاءت خطوبُ الدهر تَتْرَى فكلما مضى حادثٌ يعقبه آخر مسرعا(٣)
وحلَّ بنا ما لم نكن فى حسابه من الدهر ما أَبكى العيون وأَفزعا
خطوب زمانٍ لو تمادَى أَقلُّها بشامخ رَضوى أَوثبير تَضعضعا(٤)
وأَصبحَ شأْنُ الناسِ ما بين عائدٍ مريضاً ، وثانٍ للحبيب مشيِّعا
لقد كانَ روضُ العَيش بالأَمن يانعاً فأَضحى هَشيماً ظلُّه متقشِّعاً
أَيحسُنُ أَن لا يَبذُلَ الشخصُ مهجةً ويبكى دماً إن أَفنَت العين أَدمُعا؟(٥)
وقد سارَ بالأَحبابِ فى حينِ غفلةٍ سريرُ (٥) المنايا عاجلاً متسرعا
وفى كلِّ يوم روعةٌ بَعد روعةٍ فلله ما قَاسَى الفؤاد ورُوِّعا(٦)

---

(١) ألم أى نزل . تصدع الجمع أى تكسر وتفرق .

(٢) البين الفراق . لم يخل أى لم يترك .

(٣) تترى أى جاءت متتابعة . وتستعمل هذه اللفظة حالا — أى أنها اسم — ومن الخطأ استعمالها فعلا . فلا يقال : تترى الحوادث ، أى تتوالى . بل يقال : جاءت الحوادث تترى .

(٤) رضوى اسم جبل بالحجاز وثبير كذلك اسم جبل ببلاد العرب على يمين الذاهب إلى عرفات .

(٥) سرير المنايا أى سرير الموت وهو النعش الذى يوضع فيه الميت ويسار به إلى قبره .

(٦) الروعة المصيبة التى تروع .

عزاءٌ بنى الدنيا بَفَقْد أَئمَّةٍ لكَأْسٍ مرير الموت كلٌّ تجرَّعا

يميناً لقدجَلَّ المصاب بشيخنا الد سوقى وعا د القلب بالهمِّ مُتْرَعا (١)

وشابت قلوبٌ ، لا مَفارقُ ، عندما تنكرَّت الأَسماع صوت الذى نَعَى (٢)

فللناس عُذرٌ فى البكاءِ وللأَسَى عليه ، وأَمَّا فى السواءِ فتجزعا

تواضَعَ للطلاَّب فانتفعوا به على أَنَّه بالحلم زادَ ترفُّعا (٣)

وكان حليماً واسعَ الصَّدر ماجِدًا تقيًّا ، نقيًّا ، زاهدًا متوَرعا

سعى فى اكتساب الحمد طولَ حياته ولم نَرَه فى غير ذلك قد سَعى

ولم تُلههِ الدنيا بزُخْرف صُورة عن العلم كَيما أَن تَغُرَّ وتَخْدَعا (٤)

لقد صَرفَ الأَوقاتَ فى العلم والتُّقى فما إنْ لها يا صَاح أَمسى مضَيِّعا

فَقَدناه ، لكنْ نفعه الدهرَ دائمٌ وما مات مَن أَبقى علوماً لمن وَعَى

فجُوزِىَ بالحسنى ، وتُوِّجَ بالرِّضى وقُوبِل بالإِكرام ممنَّ له دَعا

د ـ المدح :

بشراك بالمنصب

كان الشيخ عبد الرحمن السفاقسي الضرير شيخاً لرواق المغاربة بالأزهر ،

---

(١) جل المصاب أى عظم ، والقلب المترع هو المملوء بالهموم .

(٢) القلوب لا المفارق التى شابت من هول المصاب وشدة وقع النعى الذى أنكرته المسامع غير مصدقة له .

(٣) يشير العطار فى هذا البيت إلى قول الشاعر العربى :

دنوت تواضعا ، وعلوت مجدا فشأناك انحـدار وارتفاع

(٤) لم تصرفه الدنيا بزخارفها الكاذبة عن العلم وطلبه .

فلما عزل تولى بعده الشيخ شامل الطرابلسي . وكان العطار يميل إليه ويصادقه . فامتدحه بقصيدة يقول فيها :

انهضْ فقد ولَّت جيوشُ الظلام ... وأقبلَ الصبح سَفيرَ اللِّثام (١)
وغنَّت الوُرقُ على أيْكها ... تُنبِّه الشَّرب لشُربِ المدام (٢)
والزَّهر أضحى فى الرُّبى باسما ... لما بكتْ بالطلِّ عَين الغَمام (٣)
والغُصنُ قد ماسَ بأزهاره ... لما غدت كالدرِّ فى الانتظام (٤)
وعَطَّرَ الرَّوضَ مرور الصَّبَا ... على الرياحِين فَأَبْرا السّقام (٥)
كأنما الوردُ على غُصنهِ ... تيجانُ إبريز على حُسْن هام
كأنَّما الغدرانُ خُلجانُ أغْ ... صانِ النَّقا ، والنهرُ مثلُ الحُسام (٦)
بُشراكَ مولانا على منْصِبٍ ... كان له فيكَ مَزيدُ الهُيام (٧)
فقد رأيْنَا منكَ ما نَرْتجى ... لا زلتَ فينا سالماً . والسلام

---

(١) ذكر صاحب كتاب « مصر فى القرن الثامن عشر أن هذه القصيدة قالها العطار فى مدح صديقه الشيخ أبي القاسم المغربي شيخ رواق المغاربة . وقد رجع فى هذا إلى كتاب « مظهر التقديس » وعبارته مضطربة فى هذا الحادث . والصواب ما ذكرناه من أنها فى مدح الشيخ شامل الطرابلسى نقلا عن الجبرتى ج ٥ ص ١٤٦ طبعة لجنة البيان العربي .

(٢) الورق بضم الواو جمع ورقاء ، وهى الحمامة . والشرب بفتح الشين المشددة : جماعة الشاربين . والشرب بضمها مصدر من الفعل : شرب .

(٣) الربى جمع ربوة وهى المرتفع من الأرض ، الطل المطر الخفيف . الغمام السحاب المملوء بالمطر وفى هذا البيت استعارة أى أن الأرض ضحكت بالزهر حين بكت السماء بالمطر .

(٤) ماس : مال .

(٥) الصبا ريح شرقية لطيفة فى بلاد العرب ، وهى فى الحق نسيم لا ريح . أبرا أصلها أبرأ أى شفى المرضى .

(٦) الغدران جمع غدير . والنقا القطعة من الرمل المحدودبة ، والحسام السيف .

(٧) الهيام شدة الكلف بالشيء . يريد الشاعر أن المنصب نفسه كان مشتاقاً إلى أن يناله الممدوح .

هـ — التهنئة :

فخر المرء بأفعاله

كان بعض المشايخ من أصدقاء العطار نقيباً لأشراف القدس ، ولكنه أبعد عن النقابة ، ثم عاد إليها مرة أخرى ، فنظم العطار قصيدة يهنئه منها هذه الأبيات :

الحمد لله على فَضْله ... قد رَجَع الحق إلى أهله [1]
وآضَ روضُ الفضل ذا بهجة ... من بعد ما أشفقَ من مَحْله [2]
قد يطْلبُ الحسناءَ من لم يكن ... كفْؤًا لها ، للحمقِ فى عقله
قد يتساوَى اثنانِ فى منصبٍ ... وإنما التفريق فى سُبْلِه [3]
ومَفْخَر المرء بأفعاله ... لا بالذى قد ماتَ من أهله
وقد يسُودُ الشخص آباءَهُ ... ويشرفُ الفرعُ على أصله [4]
وقد نَرى فَرعَينِ من دوحة ... تَخالَفا فى الحكم مع شكله
فالخلُّ والخمر عصيرٌ ، وقد ... باين هذا ذاك فى فِعله

---

(١) رجع الحق إلى أصحابه بعودة المهنأ إلى عمله .
(٢) آض : صار ، والمحل جدب الأرض .
(٣) الفرق بين اثنين توليا منصباً واحداً هو فى طريق كل منهما فى عمله .
(٤) يسود : يتفوق ويزيد فى السيادة . ويشرف أى يكون ذا شرف أكثر .

و ـــ الهجاء :

ثلاثة فى واحد

هجا العطار شخصاً بأنه اجتمع فيه البخل ، والجهل مع التعالم ، والحسد مع التودد ، فقال :

إنى لأكره فى الزمانِ ثلاثةً ما إنْ لها فى عَدِّها من زائد
قُربَ البخيلِ ، وجاهلاً متفاضلا لا يستحِى ، وتودُّدًا من حاسد
ومنَ البلية والرزيَّة أن تَرَى هذى الثلاثة جُمِّعتْ فى واحد

جنود الحملة الفرنسية

لاحظ العطار أن جنود الحملة الفرنسية كانوا يركبون الحمير ويجهدونها فى المشى والإسراع ، وهم يصيحون ويعربدون فى أخطاط القاهرة ، ويشاركهم المكارية ـــ الحمارون ـــ فى ذلك ، كما أنهم كانوا كثيرى التردد على الحانات التى أقيمت خصيصاً لهم ، فقال فى ذلك يهجوهم ويتمنى هلاكهم فى حملة الشام :

إن الفرنسيسَ قد ضاعَتْ دراهِمُهُم فى مصرِنا بَينَ حمَّار وَخَمار
وعن قريبٍ لهم فى الشام مَهْلكةٌ يَضيع فيها لهم آجالُ أعمارِ[1]

---

(١) المهلكة الهلاك والموت . وهنا يتمنى لهم الشاعر الموت فى حملتهم على الشام .

ز — الموشحات :

قطاف الكروم

كان العطار معجباً بشعر أهل الأندلس وموشحاتهم . وكان يرى فيها ما يوجب السرور للنفس . وقد عارض إحدى الموشحات الأندلسية التي مطلعها :

في رنّة العود والسُّلافه والروض والنهر لي نَديم

بقوله ، وقد سجله في حاشيته على التهذيب في المنطق :

في الروضِ والنّهر والسُّلافه يديرهَا الشَّادِنُ الرَّخيم(١)
بين ندامى حَوَوْا لَطَافَه قد طاب والله لي النعيم(٢)
يا لائماً لي على التّصابي ولستُ أَصْبو إلى ملام
أَما تَرى سندسَ الروابي كلَّلهُ لؤلؤُ الغَمامِ(٣) ؟
والشمس وافتْكَ في نقابِ ضمَّخهُ عنبر الظلام(٤)
والكرْمُ أَبدى لنا قِطافَهْ كأَنها لُؤلؤ نَظيم(٥)
والنهر قد أَحسن انعطَافه مثلَ سوار بكفِّ ريم(٦)

---

(١) السلافة والسلاف بضم السين ما سال وتحلب من الخمر قبل عصره ، الشادن ولد الغزال ويشبه به الذى يدير الخمر على الشاربين ، والرخيم الرقيق الصوت .

(٢) الندامى جمع ندمان وهو المرافق على الشراب .

(٣) سندس الروابي أى الخضرة التى تكلل سطوح الأرض المرتفعة . كلله أى جعل له إكليلا . ولؤلؤ الغمام هو ماء المطر الشبيه بحبات اللآلى .

(٤) النقاب ما يوضع على الوجه ليغطيه كالحجاب . ضمخه أى عطره بالطيب . وعنبر الظلام ، هو سواد الليل ، شبهه بالعنبر فى سواده .

(٥) الكرم شجرة العنب ؛ واللؤلؤ النظيم أى المنظوم .

(٦) السوار ما يلبس فى المعصم ؛ والريم ولد الظبى .

نسمة الشمال

وهذه هي موشحة أخرى لحسن العطار على طوبقة الأندلسيين . وهما مما دوّنه الرجل في كتابه « حاشية على شرح التهذيب في المنطق » للخبيصي :

صاحِ ! تنبَّه من النُّعاس   فكوكَب الصُّبح قَدْ أنَارْ
وانهضْ إلى روضةٍ وكاس   وشادنٍ خالى العذار[١]

* * *

أما تَرى المُزنَ باللآلى   قد قَلَّدَ الغُصن[٢] بالعقود؟
فماسَ في الروض باختيالِ   يُهيِّم الصبَّ[٣] للقدود !
تهزُّهُ نَسمةُ الشَّمالِ   فيعبق الرَّوضُ بالورود[٤]

* * *

يَزهو بوَشْي من اللباسِ   ما بَين وردٍ وجُلَّنار[٥]
وللشقائق طرازُ آسِ   ذكَّرنى الخَدَّ والعذار[٦]

---

(١) العذار جانب اللحية أو الخد .

(٢) المزن جمع مزنة وهي السحابة . وقد شبه حبات المطر بحبات العقد .

(٣) يهيم الصب : بالتشديد : أى يجعله يهيم ويفتن . والصب المحب الموله ، والقدود جمع قد ، وهو القوام .

(٤) يعبق أى تنتشر رائحته .

(٥) الوشي ما يوشى الثياب ويحليها ويزركشها ، والجلنار نوع من الورود وهي فارسية الأصل .

(٦) الشقائق نبات أحمر الزهر مبقع بنقط سوداء . والآس نوع من نبات الريحان العطرى الرائحة .

ح – الشعر التعليمى :

علوم العربية

كان حسن العطار ينظم النوع من الشعر المسمى بالتعليمى – كشعر ألفية ابن مالك فى النحو – والقصد منه تسهيل حفظ القواعد . فمن شعره التعليمى – ومن المجاز أن يسمى هذا شعراً – قوله فى عد علوم العربية فى نظره :

نحو ،وصرف ، عروض ، بعده لغة   ثم اشتقاق ،وقرض الشعر ، إنشاء
كذا المعانى، بيان، الخط ،قافية   تاريخ هذا لعلم العُرب إحصاء

أنواع المعارف

الاسم المعرفة فى علم النحو ضد النكرة ، والمعارف سبعة أنواع جمعها حسن العطار فى بيت واحد مشهور كان يحفظه تلاميذ المدارس حصراً لأنواع المعارف ، وهى : الضمير ، والعلم ، واسم الإشارة ، واسم الموصول ، والمحلى بأل ، والمضاف ، والمنادى . والبيت هو :

إن المعارف سبعة فيها سهل   أنا ،صالح ،ذا ،ما ،الفتى ،ابنى ،يارجل

٢ ــ حسن العطار الناثر

ا ــ الوصف :

وصف دمشق

سبق أن وصف العطار دمشق شعراً ، وهنا وصفها نثراً يقول فيه :

أما دمشق الشام ، فهى غرة[1] البلاد ، وبغية المرتاد[2] ، وهى فى الدنيا جنة ، وساكنها له من الهم وقاية وجنة[3]. ذات سرور وحبور ، وقصور ونهور ، ورياض وحياض ، وفاكهة ذات ألوان ، ووجوه حسان . هى أعلى متنزهات الدنيا الأربع ، يطيب بها العيش لمن فى ربوتها يرتع ، ويسلك لكل روض فيها للقطف مهيع[4] . فيرى أحسن مرأى ويسمع أشهى مسمع .

وقيل له أهلا وسهلا ومرحبا   فهذا مبيت صالح ومقيل[5]

عند ذلك يتفرغ باله ، وتنفسح آماله ، ويطيب باجتلاء التهانى ، واقتبال الأمانى بكوره وآصاله ، وتتراءى له تلك القصور ، التى عليها الحسن مقصور ، والمنازل الفسيحة ، والمنازه المليحة ، والأراضي السندسية ، والمناهل الفضية ، والرياض المونقة[6] ، والجنان المحدقة ، والثمار الباسقة ، والأزهار المتناسقة ، والغدران المتدفقة ، والوجوه المشرقة .

تلك المنازل والملا   عب لا أراها الله محلا[7]

---

(١) غرة الشيء جبهته وأشرف شيء فيه .

(٢) المرتاد . الشخص الذى يرتاد البلاد ويجوبها .

(٣) الجنة بضم الجيم ــ الوقاية .

(٤) المهيع الطريق والدرب الذى يسير فيه المرء .

(٥) المقيل اسم مكان من قال بالمكان أى نام فيه بالقائلة أى منتصف النهار .

(٦) المونقة : المعجبة . وهى اسم فاعل من الفعل : آنق بمعنى أعجب .

(٧) المحل بسكون الحاء هو جدب الأرض ، وهنا يدعو لها الشاعر بالخصب .

حيثُ التفتَّ وجدتَ ما ء سابحاً ، وسكنتَ ظلا

فالمتردد فى تلك السُّوح (١) ، التى نسيمها بعطر شذاها (٢) يفوح ، يطيبُ صَبوحه وغبوقه (٣) ، ويُحمدُ غروبه وشروقهُ ، ويَرى عنوان الجنان ، فى هذا المكان ، من حورٍ وولدان (٤) ، وجواهرَ وعقيان (٥) ، وأوقات كلها أسحار (٦) ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار .

متنزهات القسطنطينية

وحين حل الشيخ حسن العطار ببلاد الروم — تركيا — نزل بعاصمتها القسطنطينية ، فأعجبته متنزهاتها وخلجانها وقصورها ومعاهدها ، فكتب هذه الرسالة يصفها :

كتب إلى السيد الجليل أدام الله إشراقه ، وعطر بالثناء أخلاقه ، وأنا بالطرف الذى هو فى عقد محاسن الدنيا الواسطة ، ومفاخره فى سماء المعالى متصاعدة لا هابطة . ونعم هو متنزلاً فى مطالع السرور عالى ، وقدرُه فى المتنزهات غالى ، وبَدْر إشراقه بالسعود متلالى ، وبه الغريبُ لأوطانه سالى (٧) . وقد أطل على الخليج القسطنطينى المحتف بعرائس القصور ، والرياض المعطرة بروائح الزهور ، وملاعب الولدان والحُور ، ومجتنى ضروب اللذات والسرور ، والساحب أذيال

---

(١) السوح جمع ساحة وهى المكان الواسع .

(٢) الشذى الريح الطيب وأرج العطر .

(٣) الصبوح كل ما يؤكل أو يشرب صباحاً ، والغبوق بفتح الغين ما يؤكل أو يشرب على المساء أو فى العشى .

(٤) الحور جمع حوراء وهى الفتاة الحسنة أو التى اشتد سواد عينيها وبياضهما .

(٥) العقيان بكسر العين : الذهب الخالص .

(٦) أسحار جمع سحر بفتحتين وهو ما قبل طلوع الفجر .

(٧) سلا الرجل أوطانه أى تسلى على بعدها بالصبر عنها .

الحبر والحبور (١) ، حيثُ الفلكُ يبدو رُ الحسن فى ذلك الخليج سابحة ، غاديةٌ فى ضروب المسرات رائحة ، والزوارق على وجه الماء ، تنساب كالحية الرقطاء (٢) ، تتلاعب بها أمواجه ، ويَزيد بها للناظر سروره وابتهاجه . وقد طلع بها شموس وبدور ، وأربت على الأفلاك (٣) حيثُ فى كل فلَكٍ كوكب ، وهذه على عدة كواكب تدور . وقد أحاط بذلك الخليج تلك المنتزهات (٣) ، والمعاهدُ العامرة باللذات ، والبدورُ التى هى عن الحسن مسفرة ، والوُجوهُ التى هى بالنعيم مستبشرة .

يُطلُّ من كلِّ دار حوله قَمرٌ وليس فى الأُفْقِ يا هذا سوى قمر
والماءُ مثْل السما لوناً وباطنُه يشف عن نيِّرات الأَنجم الزُّهر

والشط يرفلُ فى ملابس سندسيات ، و يهدى إلينا نوافحَ مسك عاطرات ، ويزهو من بهجته بأحسن منظر ، ويتيهُ بجلباب من السندس الأخضر . والأنهار تتخلله ، والأشجارُ تظلِّلُهُ .

سَقياً لها بين بطاحِ خزٍّ (٤) ودوح روضٍ بها مُطلٍّ
فما ترى غيرَ وجه شمسٍ يلوح فيها عذار ظلٍّ (٥)

والنسيمُ بقامات الغصون يعربد ، ولصفحة وجه النهر يجعد ، وقيانُ (٦) الطيور على منابر الدوح تغرد ، والنديمُ يشدو ويُنشد . . .

---

(١) الحبر بكسر الحاء وفتح الباء جمع حبرة وهى نوع من الثياب التى كانت تصنع باليمن . والحبور السرور .

(٢) الحية الرقطاء هى السوداء المشوبة بنقط بيضاء .

(٣) يستعمل العطار كلمة منتزه بتقديم النون على التاء ، والأصح متنزه بتقديم التاء على النون ، وهو المكان الذى يتنزه فيه الإنسان .

(٤) الخز الحرير ، وقد شبه بقاع الأرض بالخز الناعم .

(٥) العدار الخد ، أو جانب الوجه ، وشبه الظل بالشعر النابت فى العذار .

(٦) القيان الطيور المغنية . وأصل القينة فى اللغة : الجارية أو المغنية .

ب ـ الرسائل الإخوانية :

فى الشوق إلى صديق

كتب حسن العطار هذه الرسالة فى الشوق إلى أحد الإخوان . وهى نموذج من رسائله الإخوانية :

العهد يا سيدى بعيد، والشوقُ شديد، وسبُلى إلى زيارتك غيرُ مُسْتَسْهَلة، وعادةُ تفضلك فى المراعاة متعطلة، وأنت على صلتى بعائد[1] موصولك أقدر، وأحق برعايتى وأجدر . ولم أقلْ هذا شكوى لك بل شكوى إليك . وكيف أشكو من لا أخلو له من مَبرّة أشكرُها[2] ، ومنّة أتحملها، ويد أحفظها وأعتدّ بها . وبالله لو تلازَمنا على المداومة ، وتلاقينا على المواظبة . لما نقع ذلك[3] غلة ظمأى إليك ، ولا عدمتُ نزوات[4] الحنين عليك . فكيف[5] والشقة بيننا معترضة، والأعمارُ دُونَ اجتماع الشمل منقرضة ؟ والله يطيلُ مدة عمرك، ويمدّ أيام عزك، ويقربُ دارك ، ويُدنى مزارك ، ويَحرُسُ النعمة عندك ، ويُديمُ سعدك، ويرينى إياك على ما أحبّه لك وتحبه لى ، من سكون الجاش[6] ، ورغد المعاش، وصلاح الحال ، ورفاه البال بقدرته آمين .

---

(١) لاحظ هنا استعمال العطار لمصطلحات العلوم فى نثره . فالصلة ، والعائد ، والموصول هى من مصطلحات علم النحو كما لا يخفى .

(٢) المنة : المعروف أو الصنيعة .

(٣) نقع ـ بالقاف ـ الماء غلة العطشان أى سكن ظمأه .

(٤) النزوات : جمع نزوة وهى الصولة ، والوثبة .

(٥) الشقة : بضم القاف المسافة .

(٦) الجاش : النفس أو القلب أو الصدر . وأصلها الجأش بالهمزة ، ولكنه سهلها إلى ألف مراعاة للسجعة فى كلمة : المعاش . ويقال : فلان ساكن الجاش أى هادئ النفس لا يضطرب .

أمل فى اللقاء

وكتب رسالة أخرى إلى صاحب يأمل فى لقائه ، بعد افتراق :

أخى الذى انتثر عقد نظامى معه ، وصاح غراب البين[١] على مجمع شملنا فصدعه . قد كنت أظن أن الأيام لا تزال لنا باسمة ، ورياح المسرات بنادى جمعنا ناسمة ، فإذا أنا مكلف الأيام ضد طباعها[٢] . ومتشبث منها بخلاف أوضاعها . ومع ذلك فأنا لا آيسُ من اجتماع بعد فرقة ، ومسرة تحصُلُ وإن طالت المشقة ، وبعدت الشقة ، وتأججت الُحرقة .

وقد يجمع الله الشتيتين[٣] بعدما   يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

فالحمد لله على آلائه ، والشكرُ له على قضائه ، وعسى تعودُ هذه الأيامُ التى جرت إليها سوابقُ الأمانى مُطلَقات الأعنة[٤] ، وأبرزت الأقدارُ فيها من الآمال ما كان ساكناً كالأجنة . حقق الله ذلك المرجو والمأمول ، وأنعَم بذلك المتمنىّ والمسئول . ونسأل الله تعالى أن تكون شمسها دائماً مشرقة الأنوار ، وأن تكون هذه الجملة للدوام والاستمرار .

---

(١) البين الفراق ، وصاح غراب البين بين القوم ، كناية عن تفرقهم ، فقد كان العرب يعتقدون أن صيحة الغراب نذير بالافتراق . وفى هذا يقول الشاعر النابغة الجاهلى :

زعم العواذل أن رحلتنا غدا   وبذاك تنعاب الغراب الأسود

(٢) مكلف الأيام ضد طباعها ، أى مكلفها ما ليس من طباعها من الغدر والتقلب بأحوال الناس ، وفى هذا يقول الشاعر :

ومكلف الأيام ضد طباعها   متطلب فى الماء جذوة نار

(٣) الشتيتين : مثنى شتيت وهو البعيد المتفرق .

(٤) الأعنة جمع عنان وهو لجام الفرس ، ومطلقات الأعنة أى أحرار منطلقات بلا قيد .

جـ — تقريظ الكتب :

ترجمة الألفية إلى التركية

ألفية ابن مالك فى النحو مشهورة ، وقد ترجمها إلى اللغة التركية فى عصر حسن العطار أديب كاتب تركى اسمه خيرت أفندى . فكتب العطار هذا التقريظ التالى لها :

أهذه حديقةُ زَهر ، أم قلادة[١] نحر ، أم سماءُ فضل أزهرتْ بها نجومُ التحقيق ، وأشرقت شموسُ التدقيق . استنار بها مُبهم السالك ، فى أحسن المسالك ، إلى ألفية ابن مالك . فبرزَتْ بها تلك الخريدةُ[٢] العربية فى ملابس الروم[٣] ، وجُليتْ تلك العروسُ على منصتها لكل خاطب لها يروم[٤] . أبدعَ ناظمُها وأحسن ، وأحكم وأتقن . كيف لا وهو دوحةُ فضل أينعتْ بالزهر ، وتقلدت أغصانها من سُحب العرفان بقلائد الدُّرر . ربُّ فصاحة وبراعة ، وقريحة لنظم القريض سلسة مطواعة . وهو فى الألسن الثلاث سبَّاق غايات ، وصاحبُ آيات بينات ، ودراية راسخة ، آيةُ فضلها لما تقدمها ناسخة . كاتب حاسب . ببراعة تستنتج المطالب ، وتستمطرُ الرغائب ، وتخلّد للأول مآثر ، وتنظمُ فى جيد الزمان قلائد جواهر ، فمعانيه قرة عقل تأرَّج[٥] زهرُها ، وسماءُ فضل أشرقَ بدرُها . نظم بها فى جيد البلاغة عقودا ، ووشَّى من الطُّروس برودا[٦] ، فهو حسنةُ الدهر ، وزينةُ العصر ، تتجمل به الأيام ، وتفتخر به

---

(١) القلادة : ما يحيط بالعنق من عقد وغيره ، والنحر : أعلى الصدر .

(٢) الخريدة : هى الفتاة البكر الحسناء التى يجملها الحياء .

(٣) برزت الألفية فى ملابس الروم أى ترجمت إلى التركية فظهرت فى ثوب تركى . والروم هم الأتراك كما كانوا يسمون فى كتب التاريخ منذ ظهور دولتهم . وحسن العطار حين سافر إلى بلاد الروم أى إلى بلاد تركية .

(٤) يروم أى يريد ويقصد . ومنصة العروس هى الدكة العالية التى تنص عليها ليلة عرسها .

(٥) تأرج زهرها أى فاح أرجه وعطره .

(٦) الطروس جمع طرس وهو الصحيفة يكتب فيها ، والبرود — بضم الباء — جمع برد وهو نوع من الثياب المخططة .

الأنام . وإنى وإن أُجريتُ فى ميدان الصحف سوابقَ الأقلام ، ونُشرتْ من مطويات محاسنه فى أندية الثناء راياتٌ وأعلام ، لمعترفٌ بالقصور ، عن الخوْض فى هذه البحور ، فقصارى[1] المديح ، عجزُ الفصيح ، عن الوصول إلى هذا الفضاء الفسيح ، فأنتقلُ من الثناء ، إلى الدعاء . حفظه الله ورعى . . .

رد عقائد المبطلين

وكتب الشيخ حسن العطار تقريظاً على كتاب ألفه شيخ الإسلام بتركيا : عطاء الله أفندى ، يرد به عقائد قوم مبطلين . ويقول العطار من تقريظه :

ما روضة كللت[2] السحبُ رُباها بلآلئ القطر ، وتوشحت[3] أعطافُ قدود غصونها بقلائد الزهر ، وتأرجت أرجاؤها بأريج ريحانها ، وصقلت يد الشمال صحيفة غدرانها ، بأبهج منظرا ، وأورق أثرا من لطافة هذا التأليف ، الذى علا الاتفاقُ على بلوغه الغاية القصوى ، فى تآلف القلوبْ ، وأقرت العقولُ السليمة بأعجازه للنظراء فإنه منحةُ علاّم الغيوب ، ومدت إليه البلغاء أعناقها مستسلمين لإعجاز بلاغته ، ثملين من حُميّا[4] معانيه المشرقة فى كؤوس فصاحته . فلله هو من جنّة علمْ قطوفها دانية ، لا تسمعُ فيها لاغية ، ومَجرّة فهم [5] أضاءت فيها شموس التحقيق ، وأشرقت فيها كواكب التدقيق ، وحصن مشيّد على الشريعة الغرّاء ، رُفع على دعائم [6] الأدلة التى لا يأتيها الباطلُ من بين يديها ولا من خلفها . . .

---

(١) قصارى الشيء : غايته . وتقول : قصارى مديحى أى غاية مدحى ومنتهاه .

(٢) كللت السحب الربى أى توجتها وعقدت على رأسها إكليلا .

(٣) توشحت أى اتخذت لها وشاحا ، وهو ما يوضع بين العاتق والكشحين . وقد كانت المرأة العربية تضع لها وشاحا ترصعه بالجواهر لتزين به نفسها .

(٤) الحميا سورة الخمر وشدة أثرها فى النفس ، أو الخمر نفسها .

(٥) المجرة مجموعة من النجوم فى السماء .

(٦) الدعائم جمع دعامة وهى ما يقوم عليه الشيء ويستند إليه .

د ـ الإجازات العلمية :

من إجازة علمية للشيخ حسن البيطار

وكتب العطار إجازة لتلميذه الشيخ حسن البيطار الدمشقى ، حينما كان صاحبنا نازلاً بالشام بعد رحلة إلى تركيا وألبانيا ، يقول فيها بعد ديباجة مناسبة :

أما بعد . فإن الشاب الفاضل ، والأديبَ العالمَ العامل ، الشيخ حسن[١] ابن الشيخ إبراهيم البيطار ، قد حضر عندى حينما حضرت إلى الشام ، جميع دروسى التى قرأتها على التمام ، حضور تدقيق ودراية ، غير أنه قد حضر تلاوة قليل من الأحاديث الشريفة على طريق الرواية . ثم استجازنى بما تجوز لى روايته ، وتسندُ إلىّ عن شيوخى الأعاظم درايته . فتمنعتُ قدْرَ الإمكان ، واعترفت بأنى لستُ من أهل هذا الشأن . وعندما ألح علىّ استخرتُ الله وأجزته ، وبمطلوبه ومرغوبه أسعفتُهُ ، بما تجوز لى روايته ، وتُنسبُ إلىّ درايته ، عن أشياخى[٢] الذين اقتبستُ أنوارهم ، واغتنمتُ أسرارهمُ ، فهم ولله الحمدُ عددٌ كثير ، كلٌ له قدرٌ خطير . فمنهم العلامة الشيخ محمد الصبان ، والفهامة الشيخ أحمد بن يونس ، والشيخ عبد الرحمن المغربى ، والشيخ أحمد السجاعى ، والشيخ أحمد العروسى ، والشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ محمد الشنوانى ، والشيخ عبد الله سويدان ، وغير هؤلاء من السادة الشافعية . وأما من السادة المالكية ، فالإمام الشيخ محمد الأمير ، والشيخ محمد عرفة الدسوقى ، والشيخ أحمد برغوث ، والشيخ البيلى وغيرهم .

وقد يسر الله لى حين سياحتى فى الديار الرومية[٣] والشامية والحجازية ،

---

(١) الشيخ حسن البيطار من علماء الشام فى عصر العطار ، وهو والد المرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار الذى كان عضواً بالمجمع العلمى العربى بدمشق — مجمع اللغة العربية الآن — ومؤلف كتاب « حلية البشر » الذى ترجم فيه لأعيان القرن الثالث عشر .

(٢) الأشياخ : جمع شيخ ، كالشيوخ .

(٣) الديار الرومية ، هى بلاد تركية ، كما سبق القول فى هامش آخر .

فرأيت جهابذة فضلاء ، وأساتذة نبلاء ، قد تسنموا[١] غارب الفضل ، واجتنوا ثمار العقل ، فأخذتُ عنهم بعضاً من العلوم ، وربحتْ تجارتى بما استفدتهُ من دقائق المنطوق والمفهوم . وكذلك قد أجزتُهُ بمالى من التآليف ، التى انتهزْتُ فيها من الدهر فرصةً بعدَ طول تسويف . فهى جملةٌ من الرسائل والحواشى والشروح ، التى لا تخلو – إذا نُظرتْ بعين الانتقاد – عن مطاعن[٢] وجروح ، فليست مما يستحق أن ينشدَ فى المجالس والمحافل ، ويُذكرَ فى مجالس الأفاضل ، ولكن سأذكر بعضها إزاحةً لعلة التشوُّف[٣] ، وتبريداً لغليل التطلّع والتلهُّف . . .

هـ – كتابة الشروط والصكوك :

علم الوثائق عند حسن العطار

جعل العطار فى كتابه « الإنشاء » قسماً خاصًّا بكتابة الشروط والوثائق ، وما يجب فيها من الاحتياجات ، وما يشترط لها من الآلات . وهو يحدثنا فى السطور التالية عن كتابة الشروط والعقود :

هذا فنٌّ مستقلٌّ مغايرٌ لفن الإنشاء الذى هو القسمُ الأولُ . وقد أفردَ العلماءُ كل قسم من هذين القسمين بالتآليف ، وأكثروا فيهما من التصانيف . وسُمِّى هذا القسمُ بكتابة الشروط ، لأنه عبارة عن شروط مجتمعة فى كلِّ عقدٍ من العقود الشرعية . ويُسمى « علم الوثائق » أيضاً ؛ لأن وثوق الشهود وأرباب الحقوق بالصكوك . وهذا القسمُ نفعهُ غيرُ منكور ، وفضلهُ مشهور . لأن به تُصانُ حقوقُ الورى[٤] عن النسيان ، وتحفظ من الجحود والإنكار . ففائدته حفظُ الأموال من الجانبين . لأن صاحبَ الحق إذا علم أن حقه قيد بالكتابة

---

(١) تسنَّموا غارب الشىء أى صعدوا قمته . وأصل الغارب : كاهل الفرس ، وأعلى كل شىء .

(٢) يبدو هنا تواضع حسن العطار الذى جعل مؤلفاته غير خالية من الطعن .

(٣) التشوف التطلع إلى الشىء والإشراف بالنظر إليه .

(٤) الورى : الناس .

احترز عن طلب الزيادة فى حقه ، وعن تقديم المطالبة قبل حلول الأجل . ثم إن من الوثائق ما يكتبُ بين يدى القضاة ، ومنها ما يكتبه الناس بين يدى محكَّم ، أو بما يقع به التراضى بينهم فى المبايعات والإجازات وغيرهما من العقود . والغرض الذى نحن بصدده ذكرُ بعض صُور مما هو المتعارَفُ الآن بين الناس فى كتابة المعاملات ، ويُقاسُ عليها غيرُها ، لأن الحوادث التى تحتاج للكتابة لا تتناهى ، ولكن إذا عُملت الأصولُ سهلَ معرفةُ الفروع . وينبغى أن تكون الكتابة على ورق أبيض قوى ، يبقى أزمنةً بحيثُ لا يتفتَّتُ ولا يتمزَّق ، وتكونُ الكتابة بمداد أسودَ لا ينتشر ولا يمحى . ويُراعى فى الكتابة نسقُ الأسطرُ فى طول المكتوب وعرْضه ، بحيثُ إذا زيدَ حرفٌ بين حرفين أو ألحقتْ كلمة بأحد جانبى السطر ظهر ذلك ولم يخفَ . وتُميَّزُ الأحرفُ المتشابهةُ بعضها عن بعض بعلامات مميزة دالة على المراد بها كالحاء والخاء والجيم والراء والزاى والنون وما أشبه ذلك . فأن سبق قلمه إلى غلط كشطه وأصلحه . ويكتب فى آخر الكتاب قبل ذكر التاريخ أن الكشط والإصلاح فى السطر الفلانى فى اللفظ الفلانى صحيحٌ من الأصل . ويكتبُ اسم كل من المتعاقدين ونسبهما وقبيلتهما ، وألقابهما وصفتهما . وأقل ما يكتبُ فى النسبة ثلاثةٌ ، فإنه قد يقعُ الاشتباه فى النسب . وإن كان فيهما من غلبت كنيتهُ على اسمه كتب كنيتهُ . ومجهولُ النسب والبلاد يذكر حليته المختصة به التى يتميز بها عن غيره .

وليكتبْ قدْرَ المبيع (١) وصفتهُ ، فإن كان عقاراً عرّفه بالتحديد بالجهات ، أو حيواناً فبالنعوت (٢) . ويكتبُ الثمنَ قدْراً ، ونوعا ، وصفة ، ووزناً ، حالاً أو مؤجَّلاً . ويكتبُ صفة العقد والعاقدين اثنين أو أكثر .

---

(١) المبيع : الشىء الذى يباع . وهو اسم مفعول من الفعل : باع . ومن الخطأ الشائع اليوم قولهم : شىء مباع .

(٢) النعوت : جمع نعت وهو الوصف .

و — من مقدمات حواشيه :

شرح التهذيب في المنطق

أكثر العطار من حواشيه وشروحه على الكتب القديمة فى مختلف العلوم. وهنا المقدمة التى كتبها لحاشيته على كتاب «شرح التهذيب» للعلامة الخبيصى فى المنطق :

تهذيبُ المنطق والكلام افتتاحه بالحمد ، وتوشيحه بالشكر الذى به النعم تمتد . فالحمد لله فاتحةُ كل كتاب ، وخاتمةُ كل دعاء مُجاب. فلله الحمدُ فى الأُولى والآخرة وله الحكم(١) ، والمطالبُ لسواه إذا رُفعتْ فهى عُقمٌ . والصلاة على رسوله الأعظم ، ونبيه الأكرم هى العروة الوثقى للمستمسكين ، والوسيلةُ العظمى للمتوسلين. فعليه من الله أفضلُ صلاة وأزكى سلام ، يتواليان عليه وعلى آله الفخام ، وصحبه الكرام. وبعد : فيقول الفقيرُ أبو السعادات حسن ابن محمد العطار ، غفر الله ذنوبه ، وستر فى الدارين عيوبه : إن « شرح التهذيب » للعلامة الخبيصى(٢) ، مع وجازة ألفاظه ، وسلامة معانيه ، محتاج إلى تتميم بعض مباحثَ ، وكشف غوامضَ لمن يعانيه . وقد وَضَع العلامةُ الشيخ (يس) عليه حاشية ضم فيها من كلم القوم أطرافاً ، وأسعفَ طالبيه بها إسعافاً . بيدَ أنه امتد إليها من أيدى النقلة التحريف ، وشوّهوا محاسنها بكثرة التصحيف ، هذا مع نقله كلامَ الغير بدون عزْو(٣) ، ووقوعه بمقتضى الطبع البشرى فى السهو. وتلاه العلامة ابن سعيد المغربى ، فشغف بالاعتراض عليه ، وولع بتعقّبه فى كل ما عوّل عليه. وقد ألجأه ذلك إلى الاعتساف(٤) ، وتجاوُز

---

(١) المطالب : جمع مطلب وهو ما يطلبه الإنسان من حاجات العيش . وإذا رفعت المطالب إلى غير الله فإنها عقيمة غير مجدية .

(٢) الخبيصى : عالم من رجال القرن الثامن الهجرى اشتهر بالمنطق والنحو. وهو الوحيد فى أعلام الأمة العربية الذى يحمل هذا اللقب الغريب — توفى سنة ٧٣١ هـ . (٣) العزو : النسبة .

(٤) الاعتساف : هو الجور وركوب الأمر بلا تدبر ولا روية .

الإنصاف . ووقعَ فى أوهام وأغاليط تعكر الأفهام . وقد قيلَ فيا سبق من الأمثال ، التى تناقلها الرجال : قلّ إن سَلِمَ مِكثار[١] ، أو أُقيل له عثار . وكثيراً ما ينقل عبارة غيره موهماً أنها مما له سنح ، عندما أورى زناد فكره وقدح . وربما أطال فى بعض المواضع ذيل الكلام ، مع عدم ملاءمته الحال واقتضاء المقام . فتوعّرتْ[٢] بما ارتكباه للطالب المسالك ، وتعسرت عليه المدارك . وصار الكتاب بسبب ذلك لغيرهما محتاجاً ، ومفتقراً لمن يسلك سبيل العدالة منهاجا . فوضعتُ هذه الحاشية إسعافاً للطالبين ، وإشفاقاً على المشتغلين ، متجنباً طرفى التفريط والإفراط ، ناظماً ما التقطته من جواهر النقول فى أسماط[٣] ، ملخصاً من الحاشيتين ما صفا ، موضحاً ما تركاه مستوراً بذيل الخفا . وما نقلاه عن الغير فإليه أرجع ، ومنه أستمد وأتبع ، منبهاً بعزوه إلى قائله على أنهما منه أخذاه ، وأبهما طريق معزاه[٤] . وربما حذفا من الكلام ما تم به فائدته ، وتعظمُ عائدته . فأذكره تتميماً للكلام ، وتوضيحاً للمقام ، معولاً فى النقول ، على ما هو مقبول ، عند علماء المعقول . هذا مع اعترافى بفضل سبقهما ، وبُعد شأوهما ، مع قصورى عن الجرى معهما فى ميدان ، وعجزى عن مزاحمتهما فى هذا الشان . . .

---

(١) المكثار : هو من يكثر من الشىء أو الكلام وهى صيغة مبالغة .

(٢) توعرت المسالك : صارت وعرة صعبة .

(٣) الأسماط : جمع سمط وهو السلك أو الخيط الذى تنظم فيه اللآلى والخرز .

(٤) طريق معزاه — بالعين المهملة — أى طريق نسبه إلى صاحبه وعزوه إليه .

مقدمة العطار على حاشية الأزهرية

شرح الشيخ خالد على الأزهرية فى علم النحو مشهور وخاصة لطلاب الأزهر والدراسات النحوية . وقد صنع العطار عليه حاشية معروفة ، وكتب لها المقدمة التالية وفيها شىء من سيرته ورحلته :

أما بعد حمد الله ، والصلاة والسلام على رسول الله محمد وآله ، فيقول الفقير حسن بن محمد العطار الشافعى المصرى الأزهرى ، غفر الله ذنوبه ، وستر عيوبه : هذه حواشٍ كنتُ جمعتها على شرح الأزهرية فى علم النحو ، وقت قراءتى لذلك الكتاب بالجامع الأزهر لبعض الطلبة ، ثم شرعتُ فى نقلها من المسودة ، فدهم مصرَ ما دهمها من حادثة الكفرة الفرنسيس[1] ، فخرجتُ فاراً من مصر إلى البلاد الرومية ، مستصحباً للمسودة وغيرها من بعض كتبى . فأقمتُ بالبلاد الرومية مدةً طويلة ، ثم توجهت إلى دمشق الشام ، فصادف دخولى فيها[2] زوال يوم الجمعة الثانى من شهر ربيع الأول سنة خمس وعشرين ومائتين وألف ، فالتمس منى بعضُ إخوانى من أهل العلم بتلك البلدة ، قراءة الكتاب . فشرعتُ فى نقل هذه الحاشية وكتابتها ، رجاءَ أن ينتفعَ بها إخواننا طلبة العلم فأفوز بدعوة أخ صالح ينظر فيها .

وأسأل الله أن ينفعَ بها ، ويختمَ لى بالإيمان ، ويغفرَ لى الخطايا بمنه وكرمه . وهو حسبى ونعم الوكيل .

---

(١) يقصد العطار حادث الحملة الفرنسية على مصر ، وقد شهده واتصل ببعض رجال الحملة ، كما اتصل بهم بعض علماء ذلك العصر ومنهم الجبرتى المؤرخ .

(٢) الزوال هو وقت الظهر .

المراجع والمصادر

مرتبة وفق حروف الهجاء

الآثار الفكرية : أمين فكرى – مطبعة بولاق – القاهرة ١٣١٥ هـ

الآداب العربية فى القرن التاسع عشر : الأب لويس شيخو اليسوعى . بيروت سنة ١٩٢٤

أدب المقالة الصحفية : د . عبد اللطيف حمزة – دار الفكر العربى – القاهرة سنة ١٩٥٠

الأزهر : محب الدين الخطيب – المكتبة السلفية ، القاهرة سنة ١٣٤٥ هـ

الأزهر : د . عبد الحميد يونس ، عثمان توفيق – القاهرة سنة ١٩٤٦

الأزهر بين الماضى والحاضر : منصور على رجب – القاهرة سنة ١٩٤٦

أعيان البيان : حسن السندوبى – القاهرة سنة ١٩١٤

أعلام الفكر الإسلامى فى العصر الحديث : أحمد تيمور – القاهرة سنة ١٩٦٧

الإنشاء : حسن العطار – القاهرة سنة ١٩٣٦

بناء دولة : د . محمد فؤاد شكرى وزملاؤه – دار الفكر العربى – القاهرة سنة ١٩٤٨

تاريخ آداب اللغة العربية : جرجى زيدان – دار الهلال – القاهرة سنة ١٩٦٠

تاريخ الأستاذ الإمام : السيد محمد رشيد رضا – مطبعة المنار – القاهرة سنة ١٩٣١

تاريخ الإصلاح فى الأزهر : عبد المتعال الصعيدى . القاهرة سنة ١٩٥٨

تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على : د . جمال الدين الشيال – دار الفكر العربى – القاهرة سنة ١٩٥١

تاريخ الحركة القومية : عبد الرحمن الرافعى . القاهرة سنة ١٩٢٩

تاريخ الصحافة العربية : فيليب دى طرازى – المطبعة الأدبية – بيروت سنة ١٩١٣

تاريخ الوقائع المصرية : إبراهيم عبده — مكتبة الآداب — القاهرة سنة ١٩٤٦
التوفيقات الإلهامية : اللواء محمد مختار — بولاق — القاهرة سنة ١٣١١ هـ
حاشية العطار على جمع الجوامع — المطبعة العلمية — القاهرة سنة ١٣١٦ هـ
حاشية العطار على شرح الأزهرية — دار إحياء الكتب العربية — القاهرة
حاشية العطار على شرح الخبيصى — دار إحياء الكتب العربية — القاهرة سنة ١٩٦٠
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة : عبد الرحمن السيوطى — مطبعة الوطن — القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ
حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر : عبد الرزاق البيطار — دمشق سنة ١٩٦١
حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى : كراتشكوفسكى ، ترجمة كلثوم عودة ، تحقيق وتعليق محمد عبد الغنى حسن — المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب — القاهرة سنة ١٩٦٤
الخطط التوفيقية : على مبارك — مطبعة بولاق — القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ
دائرة المعارف الإسلامية : ترجمة اللجنة
دراسات فى الأدب العربى والتاريخ : محمد عبد الغنى حسن — الدار القومية — القاهرة سنة ١٩٦٧
ديوان إسماعيل الخشاب — مطبعة الجوائب — القسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ
« الإشعار بحميد الأشعار : السيد على الدرويش — مصر سنة ١٢٧٠ هـ
« سجع الحمامة : بطرس كرامة — المطبعة الأدبية — بيروت سنة ١٨٩٨
« محمد شهاب الدين — القاهرة سنة ١٢٧٧ هـ
رفاعة الطهطاوى : د . حسين فوزى النجار — سلسلة أعلام العرب رقم ٥٣ — القاهرة

روضة المدارس : مجلة رأس تحريرها الشيخ رفاعة الطهطاوى — القاهرة سنة ١٢٨٧هـ
الشيخ الحسين بن أحمد المرصفى : محمد عبد الجواد — دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٢
عبد الرحمن الجبرتى : خليل شيبوب — سلسلة اقرأ ، عدد رقم ٧٠ — القاهرة سنة ١٩٤٨
عجائب الآثار ، التراجم والأخبار : عبد الرحمن الجبرتى — مطبعة بولاق — القاهرة ١٢٩٧ هـ
عجائب الآثار . فى التراجم والأخبار : عبد الرحمن الجبرتى — طبعة بلجنة البيان العربى — القاهرة سنة ١٩٦٤
عصر محمد على : عبد الرحمن الرافعى — القاهرة سنة ١٩٣٠
فهرس الخزانة التيمورية : دار الكتب المصرية — القاهرة سنة ١٩٤٨
فى الأدب الحديث : عمر الدسوقى — القاهرة سنة ١٩٦٤
لمحة فى تاريخ الأزهر : د . على عبد الواحد وافى — القاهرة سنة ١٩٣٦
مصر فى القرن الثامن عشر : محمود الشرقاوى — القاهرة سنة ١٩٥٥
مظهر التقديس ، بذهاب دولة الفرنسيس : عبد الرحمن الجبرتى — دار المعارف — القاهرة
المفصل فى تاريخ الأدب العربى : أحمد الإسكندرى وزملاؤه — القاهرة سنة ١٩٣٦
المقرى صاحب نفح الطيب : محمد عبد الغنى حسن — الدار المصرية للتأليف والترجمة — سلسلة أعلام العرب — القاهرة سنة ١٩٦٦
المنتخب من أدب العرب : د . طه حسين وزملاؤه — القاهرة سنة ١٩٣٦
نشأة النثر الحديث : عمر الدسوقى — القاهرة

الفهرس

الفصل الأول

عصر حسن العطار

الفصل الثانى

حسن العطار فى عصره

صفحة

الفصل الثالث

جوانب حسن العطار

الفصل الرابع

منتخبات من آثار حسن العطار

صفحة

رقم الإيداع	١٩٩٣ / ٩٣٨٩
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 4271 - 3

١٦٠ / ٩٢ / ١
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)